الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي لميلة

معهد الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

" خصـــائص شعر الهجاء عند أبي الطيب المتنبي"
" لا تشتر العبد أنموذجاً "

مذكرة مقدمة لنيل شهادة ليسانس، في اللغة والأدب العربي

تخصص: الأدب العربي

إعداد الطلبة:

1. عبد الرحمان بن جازية
2. سمير العابد
3. حمزة عسكري

إشراف الأستاذة:

أسمهان حيدر

السنة الجامعية:2012/2011

دعاء

اللهم لا تجعلنا نصاب بالغرور إدا نجحنا
ولا باليأس إذا أخفقنا
وذكرنا أن الإخفاق هو التجربة التي تسبق النجاح
اللهم إذا أعطيتنا نجاحا فلا تأخذ تواضعنا
وإذا أعطيتنا تواضعا
فلا تأخذ اعتزازنا بكرامتنا
آمين يارب العالمين.

شُكر و تقدير

نرفع خالص شكرنا و تقديرنا إلى

أستاذتنا الفاضلة أسمهان حيدر

التي كانت المرشد الجيد

الذي يدفعنا في كل مرة للاكتشاف و البحث

و تنير طريقنا بتوجيهاتها القيمة

فتضبط خطواتنا بها

أستاذتنا المحترمة أدامك الله للطلبة الباحثين في المستقبل

فبفضلك و بفضل أمثالك يتطور البحث و نطمئن على المستقبل

سمير العابد بن جارية عبد الرحمن حمزة عسكري

المقدمة

مقدمة:

إن شغفنا وتعلقنا بالشعر العربي جعلنا نحبذ دراسته والتنقيب عن أفضل جمالياته الفنية حتى يزداد حبل وصالنا به متانة .

فاتجهنا لدراسة الشعر العربي في العصر العباسي الذي تطور تطورا ملحوظا، وذلك لتطور الحياة العامة، في جوانبها الاجتماعية والسياسية والثقافية وجهود الأدباء والرواة والعلماء والفقهاء ممن تركوا إنتاجا غزيرا ومتنوعا استفاد منه الشعراء كثيرا .

ففي هذا العصر، الذي يفك فيه بعض الشعراء إرتباطهم بمعركة الشعر، ويقيمون الأسلاك الشائكة بين القصيدة وبين مواجهة مسؤوليتها في هذه المرحلة، في هدا العصر يجيء العملاق العربي أبو الطيب المتنبي الذي تربع على عرش الشعر العربي ومازال كذلك حتى اليوم، ليقدم أوراق إعتماده إلى هدا الجيل الجديد في الوطن العربي، لأن الخالدون لا يموتون .

وبناء على ذلك فأملنا كبير في الإحاطة بمختلف الأغراض التي برع فيها المتنبي، لكن بعد استشارتنا الأستاذة المشرفة والتي قدمت لنا نصائح قيمة لكي يتسنى لنا التحكم فيه والإلمام بمعظم جوانبه الفنية وتجنبا لتكرار الموضوعات وطلبا للمعرفة العلمية الجديدة، ورغبة في تجاوز السطحية، وقع الاختيار على خصائص الشعر الهجائي عند المتنبي .

فأردنا في بحثنا المتواضع هذا أن نغوص بقدر الإمكان في شعره الهجائي، وأكيد أن ذلك لم ولن يتأتى لنا من مجرد قراءتنا لديوان المتنبي مهما كانت القراءة متفحصة ودقيقة، فإن حاجتنا للإ ستعانة بالمراجع في هذا المجال قوية وملحة حتى يكون البحث ثريا ومتماشيا مع طبيعة وشروط البحوث الأكاديمية.

وكم كانت مهمة البحث عن تلك المراجع صعبة خصوصا وإننا أردنا أن نحيط بكل ما كتب عن المتنبي لاسيما ما تعلق بموضوع بحثنا.

لكن الحمد لله الذي أعطانا القدرة على تحمل تلك الصعاب وأعاننا في إيجاد المراجع التي تدعم البحث وتسنده، زيادة على التوجيهات القيمة التي أفادتنا بها الأستاذة المشرفة.

كما كان لنا حظ في تلقي بعض المساعدات للحصول على أهم المراجع التي كنا بحاجة إليها، فنشكر جزيل الشكر أولئك الذين ساهموا في تقديم تلك المساعدات وجزاهم الله خيرا.

ولم يكن البحث ينتظم وينسجم إلا من خلال خطة منسقة كانت مرنة مند وضعناها في البداية لتتكيف وتستجيب لمعطيات البحث إلى أن اكتملت في صورتها التالية :

فالبداية كانت بمقدمة ثم مدخل عن أهم مميزات وخصائص عصر المتنبي، ثم ثلاثة فصول تناولنا في أولها حياة ونشأة المتنبي كاملة، قبل أن نلج لب الموضوع في الفصول الآتية بدءا بالفصل الثاني الذي يتعرض لأغراض شعر المتنبي، والهجاء أنموذجا مع تعريفه وتطوره في العصر العباسي ثم خصائص وأهداف الشعر الهجائي عند المتنبي، وتناولنا في الفصل الثالث هجائيات المتنبي وأشهر قصائده الهجائية، كما تطرقنا إلى علاقته وهجائه لكافور، ثم قمنا بتحليل أشهر قصيدة هجائية للمتنبي في الدراسة التطبيقية "لا تشتري العبد " مع إبراز أهم خصائص الهجاء في هذه القصيدة، وفي الأخير ملحق بقصائد الهجاء المشهورة عند المتنبي .

وختمنا بحثنا بخاتمة تضمنت أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ومجمل الخلاصات التي استخلصناها منه، هذا ونرجو مخلصين أن نكون قد وفقنا لبلوغ ما سعينا إليه من غاية لم ندخر أي جهد في سبيلها والله ولي التوفيق.

مدخل

مدخل:

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان مالم يبلغوه من قبل ولا من بعد، أثمرت فيه الفنون الإسلامية وزهت الآداب العربية، ونقلت العلوم الأجنبية، ونضج العقل فوجد سبيلا إلى البحث ومجالا للتفكير، وملوك هذه الدولة ينتمون إلى العباس عم " النبي صلى الله عليه وسلم "، انتزعوا الخلافة قسرا من يد الأمويين بمعونة الفرس. وأقاموا عرشا بالعراق، وتبوأه منهم سبعة وثلاثون خليفة في خمسة قرون وبعض القرن، حتى تلى ذلك العرش" هولاكو " سنة ستمائة وستة خمسين، وما زالت الحضارة وآداب الدولة تهبط بهبوطها، حتى سقطت بسقوطها.

وتختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال السياسة والعمران، كما كان لها الأثر الظاهر في أدب اللغة: فالدولة الأموية كانت عربية خالصة، تعصبت للعرب ولغتهم وآدابهم، وجعلت قاعدتها دمشق على حدود باديتهم، وكان جنودها وقواعدها وكتابها وسائر عمالها من العرب، فلم يحدث في أدب اللغة تأثيرا إلا ما اقتضاه التحضر واتساع العمران.

أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية، لأن الفرس هم الدين أوجدوها وأيدوها، فاتخذت عصبتها بغداد أقرب الأمصار إلى بلادهم وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها، واستبدوا بأمورها، وكانوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعا بصاع، فضعفت العصبية العربية، وعلا صوت الشعوبية، ونتج عن ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة، وتمازجهم بالتزاوج والتناسل، واختلاط المدنية الآرية بالمدنية السامية ولكل منها لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت في الأخرى، ناهيك بما امتازت به هذه الدولة من خلال إطلاق الحرية في الدين، وتعدد الفرق وشيوع المقالات المختلفة في الإلحاد والسياسة، وتكاثر الجواري والغلمان، والاسترسال في الخلاعة والمجون، والتأنق في الطعام واللباس والتنافس في البناء والرياش والعمران.

وقد شهدت الفترة التي نشأ فيها أبو الطيب المتنبي تفكك الدولة العباسية وتناثر الدويلات الإسلامية التي قامت على أنقاضها، فقد كانت فترة نضج حضاري وتصدع سياسي وتوتر وصراع عاشها العرب والمسلمون. فالخلافة في بغداد انحصرت هيبتها والسلطان الفعلي في أيدي الوزراء وقادة الجيش ومعظمهم من غير العرب، ثم ظهرت الدويلات والإمارات المتصارعة في بلاد الشام وتعرضت الحدود لغزوات الروم والصراع المستمر على الثغور الإسلامية، ثم ظهرت الحركات الدموية في العراق كحركة " القرامطة " وهجماتهم على الكوفة، لقد كان لكل وزير ولكل أمير في الكيانات السياسية المتنافسة مجلس يجمع فيه الشعراء والعلماء ويتخذ منهم وسيلة دعاية وتفاخر ووسيلة صلة بينه وبين الحكام والمجتمع، في هذا العالم المضطرب كانت نشأة أبي الطيب المتنبي، الذي وعى بذكائه الفطري وطاقته المتفتحة حقيقة ما يجري حوله، فأخذ بأسباب الثقافة مستغلا شغفه في القراءة والحفظ، فكان له شأن في مستقبل الأيام أثمر عن عبقرية في الشعر العربي، وكل ذلك له أثر بين في شعره سنقتفى أثره من خلال ولوجنا إلى الدراسة التطبيقية ممثلة في استجلاء خصائص الشعر الهجائي عند المتنبي.

الفصل الأول

حياة أبو الطيب المتنبي

1- نشأته و حياته

2- آثاره الفنية

3- طموحه

4- إدعاؤه النبوة

5- وفاته

1 – نشأته وحياته:

ولد أبو الطيب أحمد الحسين بن عبد الصمد الجعفي سنة ثلاثمائة وثلاثة هجري بالكوفة في كندة، ولذلك نسب إلى هذا الحي أو إلى الكوفة، فقيل له الكوفي الكندي، ليست نسبته الأخيرة إلى قبيلة كندة كما قد يتبادر إلى الدهن ولكنها إلى ذلك الحي الذي ولد فيه، وهو حي نزل فيه المهاجرون العرب الدين نزحوا أيام الفتوح إلى هذه البقاع، وهم من أصل يمني من كندة، فسموا منازلهم الجديدة بأسماء منازلهم الأولى للذكرى والحنين.[1] وفي شعر أبي الطيب ذكريات في هذا الحي من الكوفة وكان مفارقا له، فقال فيه يحن إليه: [2]

أَمَنْسَيً السُكُوْنَ وحَضْرَمُوتَا *** وَوَالِدَتِيْ وَكِنْدَةَ وَ الْسَبِيْعَا

وكل هذه الأماكن بالكوفة ذاتها عرفها المتنبي في نشأته وصباه.

والمتنبي صحيح النسب في عروبته من جهة أبيه وأمه، وبطونهما كانت معروفة بالكرم والفروسية، ولها أيام مقرونة بالحمد والذكر، وقد ورث الإباء والعنجهية عن قومه الذين قال فيهم: [3]

وَانِيْ لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَ نُفُوْسَهُمْ *** بِهَا أَنَفٌ تَسْكَنُ اللَحْمَ والْعَظَمَا

وقد نشأ المتنبي نشأته الأولى بالكوفة وكان يتردد بين البادية والحضر، فاكتسب من الأولى صلابتها ونزعتها البدوية ومن الثانية علومها وثقافتها، وقد ذكر " الثعالبي" – الذي ولد قبل المتنبي بأربع سنوات– :" أن أباه سلمه إلى المكاتب ورده في القبائل، فنشأ المتنبي في خير حاضرة ، والكوفة أرض ذات طبيعة جميلة حببت إلى كثير من المسلمين البقاء بها فآثروها على غيرها وقد اتخذها أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه قاعدة أمره". [4]

---

(1) مصطفاوي، موهوب:المثالية في الشعر العربي، ص694 وما بعدها، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982.

(2) البرق وقي، عبد الرحمان، شرح ديوان المتنبي، ط2،ص 364، بيروت، دار الكتاب العربي 1986.

(3) المصدر نفسه، ج5، ص235.

(4) الثعالبي:أبو المنصور عبد المالك محمد بن إسماعيل: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج1، بيروت، دار الكتب العلمية ص 161، سنة 1979.

كما كان المتنبي مند نشأته كبير النفس، عالي الهمة، طموحًا إلى المجد، بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى سعة الخلافة، وحين كاد يتم له الأمر تأذى خبره إلى والي البلدة فأمر بحبسه، فكتب إليه من السجن قصيدة منها:

أَمَـــــــالِك وَمـــنْ شَـأَنِهِ *** هَيَاتَ الْلَجـيْنَ وَعَتْقَ الْعَبِيْد

دَعَوْتُكَ عِنْدَ انقطاعِ الْدُجَــا *** ءِ وَالْمَوْتُ مِنِيْ كَحَبْلِ الْوَرِيْدْ

دَعَــوْتُكَ لـمَا يـزَنِيْ الْبَلاَءُ *** وَأَوْهَــنَ رِجْلِيْ ثِقْلَ الْحَـدِيْدْ

تَعَـــجَلْ فَيْ وُجُوْبِ الْحُـدُوْدِ *** وَحْدِيْ قَبْلَ وُجُوْبِ الْسُجُوْد [1]

فأطلقه ولكن حُبُ الرياسة لم يزل متمسكا من قبله إلى أن برد شبابه وتضاعفت عقود عمره. وفي سنة ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ادعى النبوة في الشام، ففتن الناس بقوة أدبه، وسحر بيانه، ولما سئل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إنه بشّر بمجيئي، وأخبر بنبوتي فقال: " لا نبي بعدي وأنا إسمي في السماء ". وصنف كلاما عارض به القرآن، فلما اشتهر أمره قبض عليه(لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية) فأوثه ثم أطلقه بعد أن استتابه، وتفوق عنه أصحابه فطلق يتجشم أسفارا أبعد من أماله، ولا زاد إلا صبره، ولا عدة إلا بائسة .

ولكنه لم يجبهم، وذهب قاصدا (أرجان) لزيارة (الفضل بن العميد) فكتب إليه الوزير(الصاحب بن عباد) يستزيره "بأصفهان" طامعا أن يمدحه فلم يقم له وزنا، وأما عهد الدولة(بشيراز) فأوعز عليه قلب الصاحب وأخذ يتبع هفواته وهو أعلم الناس بحسناته، وشن عليه هو وأتباعه حربا قلمية، وألغوا الكتب في نقده ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية، وهو لا يأبه لهم ذهابا بنفسه، وإعجابا بشعره.[2]

[1] أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط29، ص337.

[2] المصدر نفسه ص 339 .

ومن أجل هذا ظل المتنبي، هو صديق العصور، وبمعنى أخر أنه وبفضل دهائه، وعداوة بعض الشعراء في زمنه جعل منه بطلا حتى في العصور التي بعد وفاته، ومن أجل هذا خرج المتنبي من دكاكين الوراقين، ومن أوراق النقاد ليساهم في الحياة اليومية، وليعبر عن مطامح الإنسان العربي، عن مآسيه ووحدانيته، وأماله، وتطلعاته.

2- آثاره الفنية:

إن الحديث عن الآثار الفنية للمتنبي حديث يطول ويتشعب، حيث نجد له باع طويل في الشعر على مدار حياته ومسيرته، فشاعر عملاق كالمتنبي ترك في هذه الحياة ضجيجا ودويا مند لمع إسمه، وسطع فكره في هذه الحياة، ذلك هو المتنبي شاعر الإنسانية، شاعر الخلجات النفسية الذي درس كل خطرة تخطر في أفق الإنسان، أو تتولد من حزن أو فرح أو بسمة أو دمعة، فسجلها صورة ناطقة في شعره السيار، الذي سار في الحياة أمثالا يتداولها حتى عوام الناس الدين لا يفقهون الشعر والأدب، ولا حتى يعرفون من هو القائل لهذا المثل أو هذا البيت.

هكذا المتنبي كان ولا يزال، وهذه الخلجات والأفكار أقتبسها وولدها من قراءته لكتاب الله، ومن نهج البلاغة حتى صار في قمة الفكر واختلف فيه المفكرون والأدباء، فمنهم من يكتب عنه بإعجاب فيجعله الشاعر الأول في الحياة مند ميلاده، وحتى وفاته إلى يومنا هذا، وبعض الأدباء والنقاد يهاجمونه بعنف، وينكرون كل ما له من صور شعرية ومثل إنسانية تهز القلوب وتحرك المشاعر، وهكذا سيرة المفكر العملاق الذي ترك ثروة ضخمة طوقت في أفاق العالمين ولم تقتصر هذه الثروة على الفكر العربي بل ترجم بعدة لغات، وكتب عنه المستشرقون والغربيون كتابات إعجابية، وهذه الثروة التي تركها برغم قصر عمره الذي لم يتجاوز الخمسين عاما، ولكنه عاش في فكر الإنسانية وسيعيش حتى يرث الأرض ومن عليها، برغم عمره المادي الذي هو عمر الورود، لم يعمِّر المتنبي في هذه الحياة بجسمه المادي، ولكن فكره عمّر، ولا يزال شابا في ربيع الحياة، يشارك الأحياء حياتهم و يتنسم معهم هذا الأكسجين، ويعيش معهم في بيوتهم.[1]

وقد ترك لنا هذا العملاق ديوان شعر حافل بالأشعار، ولعل أجودها على الإطلاق ما قاله في سيف الدولة الحمداني ثم تلا ذلك شعره الذي قاله في كافور الإخشيدي وقصيدته التي تبقى خالدة على مر العصور " لا تشتري العبد" وهي موضوع دراستنا.

(1) نوابغ العرب: أبوالطيب المتنبي، دار العودة_ بيروت، الطبع الأولى ، ص95 ، سنة 1974 م .

كان المتنبي هو أول سيمفونية عربية، لا تزال موسيقاها تهب كالنسيم المشبع بأشعة الشمس، ولا يزال الكثيرون من الشعراء حتى الآن، يحاولون الكتابة على هوامشها، ولا يزالون حتى الآن يتبعون عصى ذلك المايسترو العظيم، الذي استطاع أن يحرك كل تلك الأمواج الهائلة، فوق سطح بحر الشعر العربي الذي كادت أن تهدأ أمواجه .

3- طموحه:

لقد ألهم شاعرنا الحياة بكل مظاهرها البراقة، فنظر إلى الأغنياء فوجدهم يرفلون في ثياب العزة، ثم نظر إلى نفسه فوجد أنه ابن سقاء لم يترك له عزا ولا جاها ولا نسبا، ومع ذلك لمس الطموح في نفسه والعز في ذاته كما رأى نفسه ذكيا، وسريع البديهة، وقد قيل: " **إنه نشأ بادئ الذكاء، خارق البديهة، ذا حافظة لا قطة تحفظ ما تعي بالسماع أو القراءة لأول مرة، وقد أنسى في نفسه وأحس هذا الذكاء**".[1]

إذن حين أحس (المتنبي) بهدا الذكاء، رأى أنه لايقل أهمية عن هؤلاء الأغنياء ثم وجد داعٍ يناديه إلى طلب المجد فلم يتريث بل انطلق كالسهم يشق البقاء بشعره الذي عده أخلد على الزمن مهما تطاول فقال:

وما الدَهر إلا مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِيْ *** إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الْدَهْرُ مُنْشِدًا

وقال:

إنَ هَذَا الْشِعْرَ فِيْ الْشِعْرَ مَلِكٌ *** سَارَ فَهُوَ الْشمْسُ والْدُنْيَا فَلَكٌ

عَدُلَ الْرَحْمَانُ أَفِيْهِ بَيْنَا *** فَقَضَى بِالْلَفْظِ بِيْ والْصَمَدُ لَكَ [2]

فالمتنبي جعل من شعره حافظة لشخصيته، وراوي أخباره، وقد ملك الدنيا وشغل الناس،حتى أن الزمن يضيق بطموحه قال في ذلك:

أَيُ مَحَلٍ ارْتَقَى *** أيَ عَظِيْمٍ أَبْقَى

وكُلُ مَا قَدْ خَلَقَ *** لِلَهِ وَما لَمْ يَخْلَقْ

مُحْتَقَرٌ فِيْ هِمَتِيْ *** كَشِعْرِهِ فِيْ مَفْرِقِيْ

---

[1] جورج غريب: المتنبي دراسة عامة، دار الثقافة ، ط 3 ، بيروت _ لبنان ، ص 14 .

[2] ديوان المتنبي: دار بيروت للطباعة والنشر،ج2، ص198.

في هذه الأبيات صور المتنبي شخصيته الطموحة التي تستلذ ركوب المخاطر متحديا في ذلك كل منطلق يقوم بعدم المخاطرة في سبيل ما لا يتحقق وكان يصور كبرياءه واعتداده بنفسه، وصقله خاصة في الحروب فهو يرى بأنه لا يسلك إلا السبيل الوعرة ولا يستطيب إلى طعم الموت في سبيل المكارم والمجد.

يقول المتنبي في قصيدة له ، ضد الراكعين والذين يتخاذلون عن خوض المعركة ضد أعدائهم ويحنون رؤوسهم لعواصف الطغاة:

لَا افْتِّخَارٌ إلاَ لَمَنْ لا يُضـــَامُ *** مُدْرَكٌ أو مُحَـــاْربٌ لا يَنَامُ

وَاحْتمَال الأذى و رؤيَةْ جَانبهْ *** غـداءٌ تَضْويْ بـــه الأجْسَاْم

ذَلَّ مَنْ يُغْبِطْ الذَلِـــيلَ بِعَيْـشٍ *** رُبَّ عَيْشٍ أَخَفُ مَنْهُ الحَمَامُ

إلى أن يقول:

مَـنْ يـَهُنْ يَسْهَلْ الْهَوَانْ عَلَيْهِ *** مَــــاْلِــجُرْحٍ بِـمَيتٍ إيلاَمُ

ففي هّذه الأبيات تلميح صريح عن قوته وعدم مبالاته بالموت، بل إنه أصيغ صيغة الفناء على الموت نفسه، وركز على الخوف عينه، فقد تغرب الشاعر في سبيل أمر عظيم، ومثل هذا الشاعر حقت له التضحية بالنفس والنفيس، ونظرًا لبعد همته يسأله الناس عن مطلبه فيقول: العروش والملوك، ومن ذلك قوله:

وَيَقُوْلُوْنَ لِي مَاْأَنْتَ فِيْ كُل بَلْدَة *** وَمَاْتَبْتَغِي وَمَاْ ابْتَغَىْ جلَّ أَنْ سَمَى

كَـأَنَ بَيْنـــَهُمْ عَالِمُـوْنَ بـــأَنَنِيْ *** جَلُوْبٌ إِلَيْهِـمْ مِن مُعَـاْدَاتِهِمْ الْيَتْمَى (1)

فالمتنبي يبدوا واثقا بنفسه في هذه الأبيات مفتخرا بذاته، ذاهبا بها إلى أبعد حدود من الإعتزاز، لعب المجد برأسه فنشدا.

---

(2) ديوان المتنبي: دار بيروت للطباعة والنشر، ج2، ص66.

وكما يقول"**عمر فروخ**" :" لم يستطع التكسب بشعره في ذلك الطور الباكر من حياته، فطمع إلى شيء من النفوذ لنيل ولاية، وتحصيل العيش، غير أنه طمع فامتلأت نفسه غرورا وأراد أن يكون أعلى مقاما من كل البشر طمعا في الثرايا وراح يخطط لديها متجاهلا المخاطر التي تحف به من كل صوب وناحية". [1]

لقد كان كالحمامة التي يطلقها القبطان من فوق سطح المركبة تطير وتصبغ رجليها بالطين، ثم تعود لتبشر القبطان وتبشر السفينة، بقرب الوصول إلى الميناء ومن هنا فالمتنبي هوبشارة الشعر وبشارة الشعراء، بشارتهم بانتصار قضية الشعر العادلة والنبيلة، على كل صور القبح والرداءة والتزوير.

[1] عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم، بيروت، ط3، ج1، ص77 .

4- إدعاؤه النبوة:

قال" أبوعبدالله معاذ بن إسماعيل اللاذقي " : " قدم أبو الطيب اللاذقية فأكرمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته، فلما تمكن الأنس بيني وبينه، قلت له والله إنك لشابٌ خطير تصلح لمناذمة ملك كبير، فقال ويضحك أتدري ماتقول؟ أنا نبي مرسل، فضننت أنه يهزل، ثم تذكرت إنني لم أسمع منه كلمة هزل قط مند عرفته، فقلت له: ماتقول؟ فقال: أنا نبيٌ مرسل، فقلت له: إلى من مرسل؟ فقال: إلى هذه الأمة الضالة المضِّلة، قلت تفعل ماذا؟ قال: أملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا، قلت بماذا؟ قال: بإدارة الأرزاق والثواب العاجل لمن أطاع وأتى وضرب الرقاب لمن عصا وأسى، فقلت له: إنّ هذا أمرٌ عظيم، أخاف عليك منه، وعدلته على ذلك فقال:

أَيَا عَبـْدَ ٱلإِلَـهْ مَعـادَ إِنِيْ *** خَفِيٌّ عَنْكَ فِيْ الْهِجَا مَقَامِيْ
ذَكَرْتُ جَسِيمَ مَطَلَبِيْ وَأَنِيْ *** أُخَـاطِرُ بِالمـُهْـجِ الْجِسَـامِ [1]

ثم سأله إذا كان يوحى إليه فأجب بالإيجاب، وأسمعه شيئا من ذلك فأتاه بكلام مامرّ بمسمع" أبي عبد الله" أحسن منه كما يقول، وفهم من هذه العبارات -كما يسميها المتنبي- وقد بلغت مائة وأربع عشرة عبرة، جاعلا العبرة بمقدار أكبر من التي في كتاب النبّي العربي، إنّ له طاعة من السماء، فلما سأله ماهي؟ قال: أحبس المدرار لقطع أرزاق العصاة والفجار، أي أنه يحبس المطر في السماء، ولكي يؤمن به " أبوعبد لله " قام بمعجزة أمامه فحبس عن مكان اتفق عليه في الصحراء، وكان وقع المطر حولهما شديد، فقال له " أبو عبد الله " إذ ذاك: أبسط يدك أشهد أنك رسول الله ، فبسط يده فبايعه بيعة الإقرار بنبوته .

وعمت البيعة كل المدينة في الشام وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض الأعراب وهي صدحة المطر، يصرفه عن أي مكان أحب، بعد أن يحوي بعصا وينفث في الصدحة التي لهم، وكان الكثيرون يفعلون ذلك.

[1] جورج غريب: المتنبي دراسة عامة، ص19.

ومن كلامه الذي يزعم أنه قرآن أنزل عليه قوله: " والنجم السيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفي أخطار، إمض على سننك، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في الدين، وظل السبيل " .

وليس هذا فقط حيث كان المتنبي قويا على السير، وكان عارفا بالخلوات ومواقع المياه ومحال العرب بها، فكان يسير من حلة إلى حلة بالبادية وبينهما مسيرة أربعة أيام فيخبر أهل هذه الحلة عما حدث في تلك الحلة التي فارقها، ويوهم أن الأرض تطوى له.[1]

أما إدعاء أبي الطيب النبوة، فهنا لا حاجة أبدا للدفاع أو الرد عنه، فأشعاره التي كتب عنها فيلسوفنا وشاعرنا " أبوا لعلاء " هي الرد الوحيد، على كل ما يرمي به المدّعون عن أبى الطيب ونبوته، فلا نبوة إلا لنبينا الكريم " محمد صلى الله عليه وسلم."

[1] جورج غريب: المتنبي دراسة عامة، ص20.

5- مقتله (وفاته):

إختلف الرواة في مقتل المتنبي، فمنهم من يرى أن (فاتك بن أبي جهل بن فراس الأسدي) هو الذي قتله بعدما ترصد له بمعية جماعة من بني قومه والسبب في ذلك يعود إلى هجاء المتنبي لإبن أخته" ضبة بن يزيد العتبى " وإفحاشه في الهجاء بصورة تمس العرض وتخدش الشرف فكان لهذا الهجاء اللاذع أن أثار حمية (فاتك) فثار لابن أخته[1].

ومنهم من يذهب إلى القول بأن لمعز الدولة " البويهي" يد في مقتل المتنبي لأنه أظهر استخفافا به وبوزيره (المهبابي) ولم يمدحهما حينما وفد عليهما، بل عمل على تسليط لسانه للنيل من العجم و تحريض العرب ضدهم الأمر الذي جعل معز الدولة البويهي يتربص به السوء حتى وجد في " فاتك " خير منفذ لمكيدته في قتل المتنبي[2].

وهكذا كتب للمتنبي أن ينطفئ نجمه بضيعة تقرب من دير العاقول، يوم الأربعاء شهر رمضان سنة ثلاثمائة وأربعة وخمسون هجرية، ورحل معه ابنه " محسد " وغلام له يدعى" مفلح " ولئن اختفى المتنبي بجسده فلم يختف بأشعاره التي آثرت لغة الضاد فمنحها مجدا عظيما وتراثا خالدا تسامى بروائع الحكم و آيات البيان [3] .

أما في رواية أخرى فنجدها ترى بأن أبو الطيب المتنبي كان يقوم بالتنقل من شيراز حتى بلغ الأهواز سيرا عن الأقدام، وكانت المسافة بينهما أكثر من خمسين فرسخا، وكان عليه أن يقطع مثل تلك المسافة ليصل إلى واسط، وبين هذه الأخيرة وبغداد مسافة أربعين فرسخا أيضا، كان أبو الطيب المتنبي هو قاطع الفراسخ الكبيرة، أو عداء المسافات الطويلة كما يقولون وهكذا سار المتنبي من" واسط " قاصدا " بغداد " في طريقه إلى كوفة ، وكان ذلك في السابع عشر من رمضان و كان آخر رمضان في حياة الشاعر.

---

(1) حمود محمد:أبو الطيب المتنبي،ص50،بيروت،دار الفكر اللبناني،1993

(2) المرجع نفسه ،ص51.

(3) المرجع نفسه،ص52.

وما أن أصبح في مواجهة" النعمانية " حتى خرج عليه " فاتك بن أبي جهل الأسدي " وهو خال " ضبة بن يزيد " الذي هجاه المتنبي وكان القاتل في عصابة من قطّاع الطرق تتألف من ثلاثين لصا وكانوا مجهزين بالسيوف والرماح والأقواس، هذه العصابة التي جندها " فاتك بن أبي جهل" لإغتيال " المتنبي" لم يكن حافزها أن الشاعر قد هجا " ضبة "، و" فاتك ابن أبي جهل " وهو خاله فلقد كان دافعه الحقيقي الإستيلاء على ما كان في حوزة " المتنبي " من دهب وهدايا عضد الدولة ومن أجل هذا أغرى تلك العصابة بالإنضمام إليه، ولم يلق الشاعر سلاحه رغم كثرة المهاجمين فالشاعر الذي حارب بسيفه مع سيف الدولة، والشاعر الذي قاد حامية الدفاع عن الكوفة لم يكن بالشاعر الذي يلقي بسلاحه [1] .

وليس هدا فقط بل دارت معركة دموية بين الشعر واللصوصية ، وبين الحضارة الشعرية التي يمثلها " المتنبي " وبين الهمجية التي يمثلها " فاتك " وظل " المتنبي " يقاتل هو وولده" محسد" وغلامه" مفلح " وكل من كانوا معه حتى قتلوا جميعا.

بهده المناسبة الأليمة التي لحقت بالمتنبي رثاه " القاسم مظفر بن علي الطبسي " وذلك من خلال الأبيات التالية :

لاْ رَعَى الله سرْبَ هَدَا الْزَمَـانْ *** إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَاكَ اللِّسَانِ

مَاْ رَأَىْ ْلنَـــاسُ ثَانِيْ المُـتَنَبِيْ *** أَيُ ثَــانٍ يَرَىْ لِبــكرِ ْلزَمَاْن

كَانَ مِنْ نَفْسِهِ ْلكَبْيرَة فِيْ جَيْشٍ *** وَفِيْ كِبْـرِيَاْئِـهِ ذِيْ سُلْــطَانِ

هُو فِيْ شِعــرْهِ نَبِــيٌ وَلَكِــنْ *** ظَهَرَتْ مُعْجـزَاتُهُ فِيْ ْلمَعَاْنِيْ

وعلى هذه الصورة المفجعة كان مصرع الشاعر، غير أن دم المتنبي لم يذهب هدرا أبدا، فتقاليد الشجاعة الشعرية وكبرياء الشاعر وعزته وطموحه ، قد تركها " المتنبي" خلفه أسلحة فتاكة في أيادي الشعراء، يواجهون بها أعداء الشعر وأعداء الحقيقة معا[2].

---

[1] حنا الفاخوري: منتجات الأدب العربي، منشورات المكتبة البوليسية، بيروت، ط5، ص595.

[2] نوابغ العرب:أبي الطيب المتنبي، دار العودة، بيروت، ط3، ص60/59

النعمانية:هي منطقة في وسط الطريق الرابط بين "واسط" و"بغداد" وهي قائمة اليوم على الشاطئ الغربي من نهر دجلة.

الفصل الثاني

تطور الهجاء في عصر المتنبي

1- أغراض شعر المتنبي

2- مفهوم الهجاء

3- تطور الهجاء في العصر العباسي

4- المتنبي و الهجاء

5- خصائص وأهداف الشعر الهجائي عند المتنبي

1 – أغراض شعر المتنبي:

أ– المدح :

يعتبر غرض المدح من أهم الأغراض التي نظم فيها شعراء الجاهلية شعرهم، ذلك أن الإعجاب بالممدوح والرغبة في العطاء تدفعان الشاعر إلى إتقان هذا الفن من القول، فيسعى الشاعر إلى قول الشعر الجيد الذي يتضمن الشكر والثناء .

وقد يكون المدح وسيلة للكسب، ومن بين الصفات التي يمدح بها الممدوح : الكرم والشجاعة ، ومساعدة المحتاج، والعفو عند المقدرة، وحماية الجار ومعظم شعراء الجاهلية قالوا شعرا في هذا الغرض، فهم يمدحون ملوك(**المنادرة)** أو ملوك **(الغساسنة)** بالشام ، وقوة الشاعر في الجاهلية مرتبطة بتقدمه في هذا الغرض الذي هو غرض المدح، وإذا رجعنا إلى دواوين الشعر الجاهلي وجدنا المدح يحتل نسبة عالية من هذه الدواوين وهذا دليل على أنه الغرض المقدَّم على غيره من الأغراض عند الشعراء .

إن الحديث عن مدح " المتنبي " حديث يطول ويتشعب وقد يتبدل، فالقارئ لديوان " المتنبي " يستنتج من ذلك المدح دراسة غير هي الدراسة التي قد يستنتجها إذا عاد إلى قراءة الديوان من جديد، ذلك أن هذا الفن من أكثر فنون الشعر العربي استبدادا بنتاج الشاعر، وهذا الأخير وزعه على عهود حياته الأربعة، وكما كانت هذه العهود ميدانا للتأويل، والغموض والصراع، فإن القول في المدح الموزعة عليها رهن الإستنتاج والإدراك.

وكانت أولى قصائد "المتنبي" في مدحه لسيف الدولة ميميته التي يقول فيها:

وَفَاؤُكُمَا كَالرِيحِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ *** بِأَنْ تَسْعَدُوْا وَالدَمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ
لَهُ عَسْـكَرًا خَيْلٌ وَطَيْرٌ إِذَا رَمَى *** بِهَـا عَسْـكَرًا لَمْ يَبْــقَ إِلاّ حَمَامُهُ
فَقَدْ مَلَ ضَـوْءُ الصُبْحِ مِمَا تُغَيِرُهُ *** وَمَلّ سَوَادُ اللَــيْلِ مِمَا تُزَاحِمُهُ

وفي مدحه سيف الدولة أيضا يقول:

وَقَفتَ وَمَا فِي المَوتِ شَكٌ لِوَاقِفٍ *** كَأَنَكَ فِي جَفَنِ النَدَى وهُو نَائِمُ
تَمُرُ بِكَ الأَبْطَالُ عُلْمَى هَزِيْمَـةً *** وَوَجْهُـكَ وَضَّـاحٌ وَثَغـرُكَ بَاسِمُ
تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَجَاعَةِ وَالنَهْيَ *** وَإِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمٌ

وقال المتنبي في مدح قومه :

قَــوْمٌ بُلُوغَ الغُــلاَمِ عِندَهُـمْ *** طَـعْنٌ نُـحُورَ الكُمَاةِ لاَ الحِلْمَ
كَــأَنَّمَا يُولَـدُ النَدَى مَعَهُـمْ *** لاَ صِـغْرٌ غَــــادِرٌ وَلاَ هَــرَمٌ
إِذَا تَوَلُــوْا عَــدَاوَةً كَــشَفُوْا *** وَإِنْ تَــوَلُــوا صَـنِيـعَةً كَتَمُــوْا
تَظُـــنُ مِنْ كَــثْرَةِ اعْتِدَارِهِم *** أَنَّــهُمْ أَنْعَمُـــوا وَمَــا عَلِمُــوا
وَإِنْ بـرَقُوا فَـــكُتُوفٌ حَاضِرَةٌ *** أَو نَـــطَقُوا فَـالصَّوَابُ وَالحَكَم
تَشْرُقُ أَعْرَاضُـــهُم وَأَوْجُـــهُهُمْ *** كَأَنَّهَــا فِـي نُـفُوسِهِــمْ شِيَــمٌ (1)

وقال يمدح سيف الدولة ويهنؤه بعيد الأضحى :

لِكُــلِ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعَـوَدَا *** وَعَادَةُ سَيْفِ الدَوْلَةِ الطَعْنَ فِيْ العَدَى
وَإِنْ يَكْدِبُ الأَرْجَـافُ عَنْهُ بِضِدِهِ *** وَيُمْسِيْ بِمَـا تَنْـــوِيْ أَعَـادِيْهِ أَسْعَـدَا
وَرُبَّ مَـرِيْـدٍ ضَـرُّهُ ضَـرَّ نَفْسِــهِ *** وَهَـادَ إِلَيْـهِ الجَيْـشَ أَهْدَى وَمَا هَدَى(2)

وقال يمدح سيف الدولة أيضا :

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِيْ العَزَائِمُ *** وَتَـأْتِيْ عَلَى قَــدْرِ الكِـرَامِ المَكَـارِمُ
وَتعْظُمُ فِيْ عَيْنَ الصَغِيرِ صِغَارُهَا *** وَتَصْغُرُ فِيْ عَيْنِ العَـظِيْمِ العَظَائِـمُ
يُكَلِّفُ سَيْفَ الدَوْلَـةِ الجَيْـشَ هَـمَّـهُ *** وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الجُيُوشُ الخَضَارِمُ(3)

وفي هذه القصيدة الميمية نمذج صارخ للمدح الذي يلهب النفس .

(1) أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت–لبنان، ط29، سنة 1985م، ص287.
(2) جورج غريب:المتنبي دراسة عامة، دار الثقافة، ط3، بيروت–لبنان، ص92–426.
(3) ديوان المتنبي: دار بيروت للطباعة والنشر،ج1، ص198.

وقال في أخر قصيدة مدح بها سيف الدولة وقد أنشده إياه بحلب :

عُقْبَيْ اليَمِيْنَ عَلَى عُقْبَيْ الوَغَىٰ نَدَمٌ *** مَاذَا يَزِيْدُكَ فِيْ إِقْدَامِكَ القَسَمُ

وَفِيْ اليَمِيْنِ عَلَى مَاأَنْتَ وَاعِدُهُ *** مَادَّل أَنَّكَ فِيْ المِيْعَادِ مُتَّهَمُ

كُلُّ السَيْفَ إِذَا طَالَ الضِرَابُ بِهَا *** يَمُسُّهَا غَيْرُ سَيْفِ الدَوْلَةُ السَّأْمُ

وفارق" المتنبي" سيف الدولة ورحل إلى دمشق، واتصل بكافور الإخشيدي، فلما ورد مصر أهدى له كافور دارا وآلافا من الدراهم، فقال يمدحه بقصيدة مطلعها :

كَفَىٰ بِكَ دَاءُ أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيًا *** وَحَسْبَ المَنَايَا أَنْ يَكُنْ أَمَانِيًا

تَمَنَيْتُهَا لَمَّا تَمَنَيْتُ أَنْ تَرَى *** صَدِيْقًا فَأَعْيَا أَو عَدُوًا مُدَاجِيًا

وبنى كافور دارا بإزاء الجامع الأعلى فقال يهنؤه بها:

إِنَّمَا التَهْنِئَاتُ لِلأَكِفَاءِ *** وَلِمَنْ يَدْنِي مِنَ البَعْدَاءِ

تَفْصَحُ الشَمْسُ كُلَّمَا ذَرَتْ *** الشَمْسُ بِشَمْسٍ مُنِيْرَةٍ سَوْدَاءُ[1]

ب- حكم المتنبي:

الحكمة قول ناتج عن تجربة وخبرة ودراية بالأمور ومجرياتها، ولا يقولها إلاّ من حركته الأيام ووسمته بها، فهي تختلف عن الغزل الذي يقوله الشاعر في أول شبابه، والحكمة لها الأثر البالغ في النفوس، فربما اشتهر الشاعر ببيت يشتمل على حكمة جيدة فيحفظه الناس ويتناقلوه فتشتهر القصيدة بسبب تلك الحكمة، هذه الأخيرة ليست غرضا مقصودا لذاته وإنما هي من الأغراض التي يُضمنها في قصائده الشعرية.

(1) ديوان المتنبي: دار بيروت للطباعة والنشر، ج3، ص145،

و حكم "المتنبي" منتشرة في قصائده جميعها، لا تكاد تخلو منها واحدة، وهو لم ينظمها كلفا بالتفلسف وإيراد الأمثال، ولكنها كانت نتيجة اختبار، صادقة موافقة لما كان يكابده من صروف النوائب، وتقلبات أحوال الأيام، وقد مر في القصائد التي اخترناها من المدائح والأهاجي والمراثي والمفاخر، الشيء الكثير من هذه الحكم، فلم نر فائدة في إعادتها هنا، ولكننا رأينا أن نجمع في هذا القسم بعض الأقوال الحكيمة والأبيات المتفرقة.[1]

قال المتنبي في مصر:

صَحِبَ النَاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَ *** وَعَـنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَانَا

رُبَمَا تُحْسِـنُ الصَنِيْعَ لَيَـالِيْـهِ *** وَلَــكِنْ تَكَــدَّرَ الإِحْسَـانَا

وفي قصيدة أخرى:

لاَ افْتِخَــارَ إِلاَّ لِمَــنْ يُضَــامُ *** مُـدْرِكٌ أَو مُحَــارِبٌ لاَ يَنَــامُ

لَيْسَ عَزْمًا مَا مَرَضَ المَرْءُ فِيْـهِ *** لَيْسَ هَمًا مَا عَاقَ عَنْهُ الظَلاَمُ

وَاحْتِمَالُ الأَذَى وَرُؤْيَـةِ جَانِـبِــ *** ــهِ غَــدَاءَ تَضْـوِي بِهِ الأَجْسَامُ

ومن حكمه التي تبين نظرته للحياة:

وَمُرَادُ النـفُوسِ أَصـغَرُ مِنْ أَنْ *** تَتَــعَادَى فِـيْهِ وَأَنْ نَـتَفَــانَى

غَيْرَ أَنَّ الفَتَى يُـلاَقِيْ المَنَــايَا *** كَالْحَــاتِ وَيُـلاَقِيْ الهَــوَانَا

وَلَوْ أَنَّ الحَـيَاة تَـبْقَـى لِـحَيٍ *** لَعَدَدْنَـا أَصْــلَنَا الشُجْـعَانَا

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ المَـوْتِ بُــدٌ *** فَمِنْ العَارِ أَنْ تَمُوْتَ جَبَانًا.[2]

(1) فؤاد أفرام البستاني: دروس ومنتجات أبو الطيب المتنبي، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط7، سنة 1965م، ص43_48 .

(2) المصدر نفسه ص 56 .

ومن أجل أن يواجه الإنسان حقيقة وجوده، و يدرك جوهر الأشياء ينطلق صوت المتنبي:

نَصِيْبُكَ فِيْ حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيْبٍ *** نَصِيْبُكَ فِيْ مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

رَمَانِيْ الدَهْـرُ بِالأَرْزَاءِ حَتَـى *** فـُؤَادِي فِي غِـشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

فَصِرْتُ إِذَا أَصَـابَتْنِي سِـهَامٌ *** تَكَسَّرَتْ النِصَالُ عَلَى النِصَالِ

فنصال الحياة تتكسر فوق نصالها، والشاعر ينهض من تحت الأنقاض، أنقاض السيوف والسهام والحراب، التي تكسرت فوقه، ينهض و يواصل مسيرته:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُــهُ *** وَصَدَقَ مَا يَعْتَــادُهُ مِنْ تَـوَهُمِ

وَعَـادَى مُحِـبِّيْهِ بِقَـولِ عِتَـابٍ *** وَأَصْبَحَ فِيْ لَيْلٍ مِنِ الشَكَّ مُظْلِمٌ

أَصَادِقُ نَـفْسِ المَرْءِ مِنْ قِبَلِ جِسْمِهِ *** وَأَعْـرِفُهَا فِيْ فِعْـلِهِ وَالتَـكَـلُمَ

وَأَحْـلُمُ عَنْ خَـلٍ وَ أَعْـلَـمُ أَنَــهُ *** مَتَى أُجْزِهِ حِلْمًا عَلَى الجَهْلِ يَنْدَمِ [1]

هذه هي شعلة الحياة التي ظل المتنبي يسير بها، رغم موته، لكي تبلغ أشعتها لنا، فيقول وقد أوشك يناهز الخميس:

أَتَى الزَّمَانُ بِنَوْهِ فِيْ شَبِيْبَتِهِ *** فَسَرَّهُمْ وَ أَتَيْنَاهُ عَلَى الهَرَمِ

ولكن المتنبي، لم يكن كارها للحياة، رغم كل ما كان يواجه من قهر ومطاردة وحصار ومؤامرات وأحقاد، وكان أبو الطيب لا يحقد إلى على القبح والرداءة والدناءة والغدر واللؤم واللاأخلاقية، هو الحقد الشرعي.

وكانت الحكمة بالنسبة له، خلاصة تجربة مرّ بها، ومن خلال امتحانه لمعادن الأشياء، ومعادن الناس، ومن خلال التحامه بالحياة، ذلك الإلتحام الذي ربما لم يمر به شاعر من قبل، انطلقت حكم المتنبي في مختلف قصائده كما تنطلق الكهرباء من مساقط المياه.

(1) نوابغ العرب: أبو الطيب المتنبي القصيدة والسيف، دار العودة، بيروت، ط1، سنة 1973م، ص75.

ج- الفخر:

الفخر هو الاعتزاز بالفضائل الحميدة التي يتحلى بها الشاعر أو تتحلى بها قبيلة، ومن بين الصفات التي يفتخر بها الشعراء، الشجاعة، الكرم، النجدة، ومساعدة المحتاج، والفخر يشمل جميع الفضائل.

والفخر عند المتنبي ألصق به من روحه، وزعه على جميع أبواب الشعر التي عرفها، فهذا الشاعر التي أحاطت به التجارب من كل جانب، وشغلته المعتزمات الجسام، وحطمته الأحداث القاسية، لم يغفل يوما عنصر الفخر، ولا أهمل الصيحة المدوية يتصاعد بذاته على الذرى، نافضا عنها غبار الأوداد والمنحدرات، ولعل أشهر ماله في باب الفخر ما جاء في ميميته "وأحرَّ قلباه".[1]

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ مِمَنْ ضَمَّ مَجْلِسَنَا *** بِأَنَنِيْ خَيْرَ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ
أَنَا الذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِـي *** وَأَسْمَعْتُ كَلِمَاتِيْ مَنْ بِهِ صَمَمُ
أَنَامُ مِلْءَ جُفُوْنِيْ عَنْ شَوَا رِدِهَـا *** وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَاهَا وَ يَخْتَصِمُ
إِذَا رَأَيْـتَ نُـيُوبَ اللَيْـثِ بَـارِزَةٍ *** فَـلاَ تَظُـنَ أَنَّ اللَيْـثَ يَبْتَسِـمُ

وقال أبو الطيب في غرض المدح أيضا:

عِشْ عَزِيْزًا أَوْ مُتْ وَ أَنْتَ كَرِيْـمٌ *** بَيْنَ طَعْنِ القَنَا وَ خَفْقِ البُنُودِ
فُؤُوسُ الرِمَـاحِ أَذْهَبُ لِلْغَيْـظِ *** وَ أَشْفَى لِغِلِّ صَدْرَ الحَقُودِ
لاَ كَمَا قَدْ حُيِّيْـتَ غَيْرَ حَمِيْـدٍ *** وَإِذَا مُـتَّ مُتَّ غَيْـرَ فَقِيْـدٍ
فَاطْلُبِ العِزَّ فِيْ لِظَى وَ دَعْ الذُلَّ *** وَلَـوْ كَانَ فِيْ جِنَانِ الخُلُـودِ[2]

(1) جورج غريب: المتنبي دراسة عامة، دار الثقافة، ط3، بيروت_لبنان، ص 188

(2) أحمد حسن الزنات: تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة، بيروت_لبنان، ط29. سنة 1985، ص 286

ومن شعر الصِّبا:

مَا مَقَامِي بِأَرْضِ نَخْـــلَةٍ إلاَّ *** كَمَقَامِ المَسِيْحِ بَيْنَ اليَهُـودِ

مَفْرَشِ صَهْوَةُ الحِصَانِ وَ لَكِنْ *** قَمِيْصِيْ مَسْرُوْدَةٌ مِنْ حَدِيْـدِ

إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَعَجَبٌ عـُجَابٌ *** لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيْدِ[1]

ومن فخره بشعره قوله:

أَنصْرٌ بِجُودِكَ أَلْفَاظًا تَرَكَتَ بِهَا *** فِي الشَرْقِ وَالغَرْبِ مَنْ عَادَاكَ مَكْبُوتًا

وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكَادُ بُيُوتُهُ *** إِذَا كَتَبْتُ يَبْيَـضُ مِنْ نُوْرِهَـا الحِبْـرُ

د_ الرثاء:

هو إظهار الحزن والأسى والحرقة، وتبرز جودة الرثاء إذا كان في رثاء فقيد عزيز على القلب مثل: الابن، أو الأب، أو الأخ أو الحبيب والحبيبة، فرثاء "دريد بن الصمة" لأخيه "عبد الله " من أجود ما نظم في الرثاء من قصائد، ورثاء الخنساء لأخيها صخرا من أروع ما قيل في هذا الغرض، أما بالنسبة "للمتنبي" فأكثر ما قاله في فن الرثاء قصائد ستا، خص بها سيف الدولة عندما فقد دويه و أقربائه، خمسا منها قيلت أثناء عهد الشاعر بالبلاط وعمره بين "الرابعة والثلاثين " و" الثالثة والثلاثين " ولمّا كان الشاعر أبو الطيب شاعر البلاط الرسمي كان عليه أن يقول شعرا في ما يلم بالأمير من أحداث يمتحنه بها الدهر، نزولا عند واجب، أو اندفاعا مع عاطفة، وهذه المراثي الست قيلت في أم سيف الدولة.

تُعَدُ المَشْـرِقِيَةُ وَ العَـوَالِي *** وَتَقْتُـلُنَا المُنُـونُ بِلاَ قِتَـالِ

وَتَرْتَبِطُ السـَّوَابِقُ مُقْرَبَـاتٌ *** وَمَا يُنْجِيْنَ مِنْ جَنَبِ اللَيَالِي

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُنْيَا قَـدِيْمًا *** وَلَكِنْ لاَ سَبِيْلَ إِلَى الوِصَالِ

أَتَـتْهُنَّ المُصِـيْبَةُ غَـافِلاَتٌ *** فَدَمْعُ الحُزْنِ فِي دَمْعِ الدَلاَلِ

وَلَو كَانَ النِسَاءُ كَمَنْ فَقَـدْنَا *** لَفَضَّلْتُ النِسَاءَ عَلَى الرِجَالِ

(1)جورج غريب: المتنبي دراسة عامة، ص 203

وفي رثاءه لأخت سيف الدولة الكبرى، بعد مفارقة الشاعر لسيد حلب بسنوات أنفدها إليه من الكوفة سنة ثلاثمائة واثنان وخمسون:

يَا أُخْتَ خَيْرَ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرَ أَبِ *** كِنَايَةٌ بِهِمَا عَنْ أَشْـرَفِ النَّسَـبِ
أَجَلَّ قَدْرُكَ أَنْ تَسْـــمَى مُؤْبِنَـــةٌ *** وَمَنْ يَصِفُكِ فَقَدْ سَمَـــاكِ لِلْعَرَبِ
لاَ يَمْلِكُ الطَرَبُ المَحْزُوْنُ مَنْطِقَةَ *** وَدَمْعَةٌ وَ هُمَا فِيْ قَبْضَةِ الطَرَبِ
وَكَمْ صَحِبَتْ أَخَاهَا فِيْ مُنَازَلَـةٍ *** وَكَمْ سَأَلَتْ فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ تَخِبِ
طَوَى الجَزِيْرَةَ حَتَى جَاءَنِيْ خَبَـرٌ *** فُزِعْتُ فِيْهِ بِآمَـالِي إِلَى الكَـــذِبِ
حَتَى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِيْ صِدْقُهُ أَمَـلاً *** شَرِقْتُ بِالدَمْعِ حَتَى كَادَ يَشْرِقُ بِيْ

جاء في الديوان: ورد على أبي الطيب كتاب من جدته لأمه تشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها فاتجه نحو العراق، ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك، فانحدر إلى بغداد، وكانت جدته قد يئست منه فكتب إليها كتابا يسألها المسير إليه فقبلت كتابه وغلب الفرح على قلبها فقال يرثيها:

أَلاَ لاَ أَرَى الأَحْدَاثَ مَدْحًا وَلاَ ذَمًا *** فَمَـا بَطْشُـهَا جَهْلاً وَلاَ كَفُّهَا حِلْمًا
إِلَى مِثْلِ مَا كَانَ الفَتَى مَرْجِعُ الفَتَى *** يَعُودُ كَمَا أُبْدِيْ وَ يَكُونُ كَمَا أَرْمِيْ
لَكِ اَللهُ مِنْ مَفْـــجُوْعَـــةٍ يُجِيْبُــهَا *** قَتِيْلَةُ شَـوْقٍ غَيْرَ مُلْحِقُهَا وَصْمًــا
أَحِنُّ إِلَى الكَأْسِ التِيْ شَرِبْتُ بِــهَا *** وَأَهْـوَى لِمَـثْوَاهَا التُرَابُ وَمَا ضَمَا
بَكَيْتُ عَلَيْهَا خِيفَةً فِيْ حَيَـــاتِهَا *** وَذَاقَ كِـــلاَنَـا صَـاحِبَهُ قَــدَمًـا
أَتَاهَا كِتَابِيْ بَعْدَ يَأْسٍ وَ تَرْحَـــةٍ *** فَمَاتَتْ سُرُورًا بِيْ وَمـتُّ بِهَا غَمـــًا
حَرَامٌ عَلَى قَلْبِيْ السُرُورَ فَإِنَّنِـــي *** أَعِـدُ التِي مَـاتَتْ بِـهِ بَعْدَهَا سُمًـا

وتعد هده القصيدة مرثاته الخالدة في تلك الجدة التي أحبها وترك فيها أروع القصائد وأصدقها عاطفة، فكان صرخة مطعون، طعن في كرامته حين منع من دخول الكوفة، وطعن في كبريائه حين لم يحقق أحلامه، لا بالسيف ولا بالقلب.

و_ الغزل:

وقف المتنبي على الرسوم والأطلال، وذرف الدموع من الربوع الخالية، منعزلا في مطالع مدائحه، شأنه شأن الشعراء المقلدين، فهو وإن كان أول من ثار على هذه العادة المتبعة _بعد عنترة_ فهو لم يقلع عن الوقوف التقليدي الذي دعا إلى نبده.

ولعل أروع ما قاله "المتنبي"، قوله الدال على معرفته الكبيرة بحقيقة الحسان:

الرَّامِيـَاتُ لَنَا وَهـُـنَّ نَوَافـِـرُ *** وَالخَاتِلاَتُ لَنَا وَهُنَّ غَوَافـِـلُ

كَفَأَتْنَا عَنْ شَبَهِهِنَّ مِنَ المَهَى *** فَلَهُنَّ فِيْ غَيْرِ التـُرَابِ حَبَائِلُ

مَنْ طَاغَى ثـَـغْرَ الرِجَالِ بـَآدِرُ *** وَمِنْ الرِّمَاحِ دَمَالِجُ وَخَلاَخِلُ[1]

يقول عند مخاطبته ركائب الأحباب في ارتحاله:

فَاعْرِفْنَ مَنْ حَلَمَتْ عَلَيْكُنَّ النَوَى *** وَامْشَيْنَ هَوْنًا فِيْ الأَزِمَةِ خَضْعًا

يقول مخاطبا معشوقه:

مَا بَالُهُ لاَحَـظْتُهُ فَتَضَـرَّجْتْ *** وَجـْنَاتُهَ وَفـُـؤَادِيَ المَجْرُوحُ

و قد قدّر لأبي الطيب في هذا البيت أن يرى معشوقه، وقد تخضبت وجنتا ذلك المعشوق بالإحمرار من الخجل، مع أن فؤال الشاعر أولى الشاعر أولى بهذا الخضاب في جراحه.

وفي قصيدة أخرى يمزج دموعه بدموع الحبيبة المروعة فيقول:

قَبَّلْتُهَا وَ دُمُوعِي مَزْجُ أَدْمُعَهَا *** وَقَبَّلَتْنِي عَلى خَوفٍ فمًـــا لفمٍ

تَرْنُو إِلَيَّ بِعَيْنِ الطَبِيْ مُجْهِشَةً *** وَتَمْسَحُ الطَلَّ فَوْقَ الوَرْدِ بِالْعَنَمِ

بِنَفْسِيْ الخَيَالُ الزَائِرِيْ بَعْدَ هَجْعَةٍ *** وَقَوْلَتُهُ لِيْ بَعْدَنَا الغَمَضُ تَطْعَمُ؟

وفي البيت الأخير من هذه المقاطع الثلاثة يزور أبا الطيب خيال الحبيب فيستنكر رقاده ويعاتب عليه ويتهمه بالسلو لأن من فارقه أحبابه لا ينام.

---

(1) جورج غريب: المتنبي دراسة عامة ، ص204_211.

وقوله أيضا في وصف حبيبته والتغزُّل بجمالها وملابسها :

مَلَثُ القَطْرِ أَعـْــطِشُهَا رُبـُــوعًا *** وَإِلاَ فَاسْقِــهَا السُّمَ النَـقِيْعَا
أُسَائِلُهَا عَنِ المُتَـــدَيِّرِ بِــهَا *** فَلاَ تَدْرِيْ وَلاَتَدْرِي دُمـُــوعًا
إِذَا مُسَّتْ رَأَيْتُ لَهَا ارْتِجـَــــاجًا *** لَهُ لَوْلاَ سَوَاعِـدِهَا نـُزُوعـًا
تَأَلَّـمَ دَرْزُهُ وَالْـــــدَرْزُ لَيـِّــــنٌ *** كَمَا تَتَأَلَّمُ العَضْبَ الضَنِيْـعَا
دِرَاعـُــــهَا عــَــدُوًّا دُمْلـَجَيْهـَا *** يَظُنُّ ضَجِيْعُهَا الزَنَدَ الضَجِيْعَا
أُحِبـُــكِ أَوْ يَقــُـوْلُوا جـَرَّ نَمـْـلٌ *** ثَبِيْرًا أَوْ إِبْنُ إِبْرَاهِيمَ رِيْعـَـــا
أَمَـنْسِيُ الكـَنَاسِ وَ حَضـْـرَ مـَـوْتًا *** وَوَالِدَتِيْ وَكِنْدَة وَ السَــــبِيْعَا(1)

ويقول مخاطبا أعرابية سكنت قلبه:

هَامَ الفـُؤَادُ بِأَعـْـرَابِيَةٍ سَــكَنَتْ *** بَيْتًا مِنَ القَلْبِ لَمْ تُمْدَدْ لَهُ طَنْبًا
كَأَنَهَا الشَمْسُ يَعِيْ كـَفُّ قَابِضُهَا *** شُعَاعُهَا وَ يَرَاهُ الطَوْفَ مُقْتَرِبًا
مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تُرْبَيْهَا فَقـُــلْتُ لَهَا *** مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هَذَا الشَاذِنُ العَرَبَا

وهو في هذه الأبيات يشبه الحبيبة بالشمس أو الظبي أو الشادن أو وحشية النفور، وهي ظاهرة أو سمة شائعة عند "المتنبي " وسواه من شعراء العصور الخالية .

لقد كان المتنبي في بستان الحب والغزل شجرة رمان، كما تجده في ساحة الحرب شجرة سيوف لقد كان كالحمامة التي يطلقها قبطان من فوق سطح السفينة، تطير وتصبغ رجليها بالطين، ثم تعود، لتبشر القبطان وتبشر السفينة ، بقرب الوصول إلى الميناء، ولا يزال الكثير من الشعراء يحاولون الكتابة على هوامش شعره ، ويتبعون عصى ذلك المايسترو ومن هنا فالمتنبي هو بشارة الشعر و بشارة الشعراء.

(1) القاضي على بن العزيز الحرجاني :الوساطة بين المتنبي وخصومه ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ص86.

ن ــ الوصف :

هو من الأغراض التي برع فيها شعراء الجاهلية، وهو يرد في معظم أشعارهم، فالشاعر الجاهلي يركب ناقته في أسفاره، فيصفها وصفا دقيقا، وهو يمر بالصحراء الواسعة فيصورها تصويرا بارعا، يصف حرارتها في القبظ وما فيها من السراب الخادع ، ويصف برودتها في الشتاء وقد برع شعراء الجاهلية في وصف الفرس وإعداده للصيد، ونجد ذلك عند امرئ القيس وأبي دؤاد الأيادي.

فالمتنبي شغلته نفسه فلم يلتفت إلى جماليات الطبيعة إلا لماما ولم يعمل على اكتناه أسرارها وهو إذا ما صدق أن أعار الطبيعة انتباهه كما فعل مع بحيرة طبرية لم يبد لناظريه منها سوى القوة.

يقول المتنبي في وصف الأسد :

فِيْ الخَدِّ إِنْ عَزَمَ الخَلِيْطُ رَحِيْلاً *** مَطَرً تَزِيْدُ بِهِ الخُدُوْدُ مَحُوْلاً

أَمَعْفَرُ اللَّيْثِ الهِزَبْرُ سَبُوطَهُ لِمَنْ *** ادَّخَــرْتَ الصـارِمَ المَصْقُوْلاَ

وَقعْتَ عَلَى الأَرْدَنِ مِنْهُ بِلَيَّةٍ *** نَضَدْتَ بِهَا هَامَ الرِفَاقَا تَلُوْلاً

ويقول في قصيدة مطولة يمدح بها علي بن إبراهيم التنوخي (وصف البحيرة):

لَـوْلاَكَ لَمْ أَتـْـرُكِ البُحَيــْرَةَ *** وَالغُورُ دِفْئٌ وَ مَاؤُهَا شَبَمٌ

وَالمَوْجُ مِثْلُ العُقُوْلِ مَزْبَــدَهُ *** تَهْدِرُ فِيْـهَا وَمَا بِهَا قَطَــمُ

وَالطَيْرُ فَوْقَ الحِبَابِ تَحْسِبُهَا *** فَـرَسَانِ بِلَقٍ تَخُونُهَا اللَّجَمُ

كَأَنَــــهَا وَالـرِّيــاحُ تَضـْرِبُهَا *** جَيـْشٌ وَغـــى هَـازِمٌ وَمُنْهَزِمٌ(1)

(1) جورج غريب : المتنبي دراسة عامة ،ص312 _320_338 .

ونظم قصيدة ، واصفا من خلالها الحمى التي طالته بمصر فقال:

مَلُوْمَكُمَا يَجِّلُ عَنِ المُلاَمِ *** وَوَقْعُ فِعَالِهِ فَوْقَ الكَــلاَمِ

ذَارَنِيْ وَ الفَلاَةُ بِلاَ دَلِيْلٍ *** وَوَجْـهِي وَالـهَجِيرُ بِلاَ لِثَامِ

فَإِنِّي أَسْتَرِيْحُ بِذِي وَهَـذَا *** وَأَتْعَبُ بِالإِنَاخَةِ وَالْمَقَـامِ

ومن نونيته التي مدح بها "عضد الدولة " في شيراز يصف فيها "شعب بوان " وهو منتزه بالقرب من شيراز :

مَغَانِي الشَعْبُ طَيْبًا فِيْ المَغَانِيْ *** بِمَنْزِلَةِ الرَبِيْعِ مِنَ الزَمَــانِ

وَلَكِــنَّ الفَتَــى العَرَبِيَ فِـيْهَا *** غَرِيْبَ الوَجْهِ وَ اليَدِ وَاللِّسَانِ

مَلاَعِبٌ جَنَـةٌ لَوْ سَـــارَ فِيْهَا *** سُلَيْمَـــانُ لَسَـارَ بِتُرْجُمَانِ

لَهَا ثَمْرٌ تُشِيْرُ إِلَيْـــكَ مِنْــهُ *** بِــأَشْــرِبَـةٍ بــلا أوان

وَأَهْــوَاهُ يَـصِــلُ بِـهَا حَصَـاهَا *** صَلِيْلَ الحَلَى فِيْ أَيْدِيْ الغَوَانِيْ

إِذَا غَـنَى الحَمَامُ الــوَرَقَ فِيـْهَا *** إِجَــابَتُـهُ أَغَـانِيْ القِيَـانِ(1)

وقال يصف انطلاق سيف الدولة إلى ثغر الحدث على رأس جيشه والمتنبي إلى جانبه وقد بلغه أن الروم قد أحاطت به :

كُلَمَا أَعْجَلُوْا النَذِيْرَ مَسِـيرًا *** أَعْجَلَتْهُ جِيَادُهُ الأَعْـــجَالاَ

فَأَتَتْهُمْ خَوَارِقُ الأَرْضِ مَــا *** تَحْمِلُ إِلاَّ الحَدِيْثَ وَ الأَبْطَالاَ

بَسَطَ الرُعْبُ فِيْ اليَمِيْنِ يَـمِيْنًا *** فَتَوَلَوْا وَ فِيْ الشِمَالِ شِـــمَالاً

يَنْفَضُ الرَوْعُ أَيْدِيًا لَيْسَ تَـدْرِي *** أَسُيوفًا حَمَلْنَ أَمْ أَغْـــــلاَلاً(2)

---

(1) المرجع نفسه: ض320

(2) نوابغ العرب :ابو الطيب المتنبي القصيدة و السيف، دار العودة ، بيروت، ط1، 1974/7/1، ص68.

والغرض من هذا الوصف كله، هو تمجيد القائد المغوار "سيف الدولة " الذي يحول سيوف الأعداء، وهي في أيديهم إلى أغلال يربطون بها، وما أحوجنا اليوم إلى قائد مثل سيف الدولة يحول سيوف الأعداء إلى قيود، وما أحوجنا إلى شاعر كالمتنبي يصف لنا كل ما تراه العين وصفا دقيقا متميزا و كأنك موجود في ذلك المكان الذي يقوم بوصفه .

ز- الهجاء :

لم يكثر الشاعر من الهجاء، وكان في هجائه يأتي بحكم يجعلها قواعد عامة تخضع كمبدأ أو خلق، وكثيرا ما يلجأ إلى التهكم، أو استعمال ألقاب تحمل في موسيقاها معناها وتشيع حولها السخرية بمجرد اللفظ بها، كما إن السخط يدفعه إلى الهجاء اللاذع في بعض الأحيان .

وقد يكون هجاء المتنبي في مصر أجود من مدحه، لأنه يحتاج إلى الدقة والفن، لأن أبرع الهجائيين أكثرهم كذبا، هذا ما وصل إليه المتنبي سواء هجائه للمصريين ام لكافور الذي أصبح أضحوكة بين قومه، أولى هجاء المتنبي أبيات في رجلين قتلا جردا يقول :

سُمِّيْتَ بِالْذَهَبِيْ اليَوْمَ تَسْمِيَةً *** مُشْتَقَّةٌ مَنَ ذَهَابِ العَقْلِ لاَ الذَهَبَ

وبلغه وهو بدمشق إن " إسحاق بن كيغلغ " يتوعده في بلاد الروم فقال:

يَحْمِي إِبْنَ كَيْغَلَغْ الطَرِيْقَ وَعُرْسُهُ *** مَابَيْنَ رِجْلَيْهَا الطَرِيْقُ الأَعْظَمُ

يَمْشِيْ بِأَرْبَعَـــــةٍ عَلَى أَعْـقَابِهِ *** تَـحْتَ العُلُوجِ وَمِنْ وَرَاءٍ يُلْجَمُ

وَجـــُـفُونُه مَا تَسْـتَقِّرُ كَأَنَّـــهَا *** مَـطْرُوحَةٌ أَوفَـتْ فِيْهَا حَصْـرَمُ

وَإِذَا أَشَارَ مُـــــحَدِثًا فَكَـــــأَنَهُ *** قِرْدٌ يُقَهْقِهُ أَو عَجُوزٌ تَلَـــطَّمَ

يُقْلَى مُفَارَقَةَ الأَكُـــــــفِّ قِدَالَهُ *** حَتَى يَكَادُ عَلَى يَدً يَتَعَمَّـــمُ

وَمِنَ العَدَاوَةِ مَا يَنَـــــالُكَ نَفْعُهُ *** وَمِنَ الصَدَاقَةِ مَا يَضُرُ وَيُؤْلِمُ

وهو في هجائه لطائفة من الشعراء الدين كانوا ينقصون من مكانته:

أَفِي كُلِ يَوْمٍ تَحْتَ ضَبْنِيْ شُوَيْعِرٌ *** ضَعِيْفٌ يُقَاوِيْنِي قَصِيرٌ يُطَاوِلُ

لِسَانِيْ بِنُطْقِيْ صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ *** وَقَلْبِي بِصَمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلٌ

وَأَتْـعَبَ مَنْ نَادَاكَ مَـنْ لاَتُجِيبُـهُ *** وَأَغِـيْظَ مَـنْ عَـادَاكَ مَنْ لاَتُشَاكِلُ

وَما النِيَةُ طَبَى فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّـنـي *** بَغِيْضٌ إِلَى الجَاهِلِ المُتـَـعَاقِلِ[1]

وقال يهجو وردان بن ربيعة :

لَئِنْ تَكُ طَيَّ كَانَتْ لِتِامًا *** فَالِأُمِهَا رَبِيْعَةَ أَو بَنُوهُ

وَإِنْ تَكُ طَيَّ كـانَتْ كِرَامًا *** فَوَرْدَانُ بِغَيْـرِهِمْ أَبُــوهُ

وقال يهجو ضبة ولأول مرة يقتل الشاعر هجاءه:

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمَ ضَبَةَ *** وَأُمُـــهُ الطَرطَبَـــــهْ

رَمُــــوْا بِرَأْسِ أَبِيْــــهِ *** وَنَاكُـــوْا الأُمَ غَلْبَتَـهُ

فَـلَا بِمَنْ مَــــاتَ فَــخْرٌ *** ولاَ بِـمَنْ نـيْك رَغْبَــــهُ

وإِنْـمَا قُلـــتُ مَـــاقُلـ *** تُ رَحْـــمَةً لَاْ مَــحَبَةٌ

مَا كُنْـتَ إِلاَّ ذُبَـــــــابًا *** نَـفِيْكَ عَنَّـا مَذْبَــــهُ

وَكُنْتَ تَتْــــخَرُ تَيْـــهًا *** فَـصِرْتَ تَضْرَطُّ رَهْبَه

وَإنْ بَــــــعُدْنَا قَلِيْــلاً *** حَـمِلْتَ رُمْحًا وَ حِرْبَه

كــــدا خلـقت ومـن ذا *** الـــذي يغـــالب ربه[1]

هذه الأبيات من القصيدة التي أدت بمقتل أبي الطيب المتنبي عند هجائه "ضبه وأمه الطرطبة" وبسبب هذه القصيدة رسم ضبة خطة محكمة لقتل الشاعر، وجند لها عصابة بقيادة "فاتك بن أبي جهل" لإغتيال المتنبي .

(1) جورج غريب : المتنبي دراسة عامة ، ص150.

يقول المتنبي في هجاء كافور :

وَأَسْوَدٌ أَمَّا القَلْبُ مِنْــهُ فَضِــيْقٌ *** نَخِيْــبٌ وَ أَمَّا بَطْنُــه فَرَحِيْبٌ

يَمُوتُ بِهِ غَيْظًا عَلَى الــدَهْرِ أَهْلُهُ *** كَـمَا مَـاتَ غَيْظاً فَاتِكٌ وَشَبِيْبٌ

إِذَا مَاعَدَمْتَ الأَصْلَ وَالعَقْلَ وَالنَدَى *** فَمَا لْحَيَاةُ فِي حَيَاتِكَ طِيْــبُ [1]

ويقول:

مَنْ عَلَمَ ٱلأَسْوَدَ ٱلمَخْصَيَ مَكْرَمَةً *** أَقَوْمُهُ ٱلبِيْضُ أَمْ آبَاؤُهُ ٱلصَيْدَ

أَمْ أَذَنَهُ فِيْ يَدِ ٱلنَــخَاسِ دَامِيــــةٌ *** أَمْ قَــدْرُهُ وَهُوَ بِٱلفلسِيْنِ مَرْدُوْدٌ

وفي أبيات أخرى يقول:

أُرِيْكَ ٱلرِضَىٰ لَوْ أَخَفْتَ ٱلنَفْسَ خَافِيًا *** وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِيْ وَلَاْ عَنْكَ رَاضِيًا

أَمَيْنًا و إِخْلَافًا وغَــــدْرًا وخِسَــةً *** وجُبْنًا أَشْخَصًا لَحَتْ لِيْ أَمْ مُخَازِيًا

من خلال أبياته السابقة في هجائه لكافور، يبين لنا بأن كافور قد غدا أضحوكة في هجاء المتنبي لأنه مناه الوعود الكاذبة، فقد عيره خلقه فهو أسود، قبيح المنظر، ضخم الجثة، مشقوق المشفر غليظ القدمين، خصي، فقد أجاده المتنبي إجادة فنية منقطعة النظير كانت أقرب إلى الإتقان منها إلى الصدق.

إن في أغراض المتنبي عوارض أثرت في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه، فأما التأثير في أسلوبه، فبهجر الكلمات العربية، وعذوبة التركيب ووضوحه، واستحداث البديع والإكثار منه، وترك الابتداء بذكر الأطلال إلى وصف الملوك ومدحهم والإكثار من التشبيه والاستعارة، إنما هي غاية منه في كسب ود الملوك والتقرب منهم .

(1) القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني : الوساطة بين المتنبي و خصومه ، منشورات المكتبة العصرية ،ص151.

2- مفهوم الهجاء:

جاء في أساس البلاغة " تعلم هجاء الحروف وتهجيتها وتهجِّيها، وهو يهجوها ويهجيها يتهجاها: يعددها (...) ومن المجاز: فلان يهجو فلان هجاء: يعدد معايبه، وهو هجاء، وله أهاجي، وهاجاه مهاجاة وتهجيًا، وما بينهما نهاج والمرأة تهجو زوجها هجاءا قبيحا إذا ذمت صحبته وعددت عيوبه".[1] و الهجاء في قاموس العين " هجا يهجو هجاء، ممدود وهو الوقيعة في الأشعار، والهجاء ممدود تهجية الحروف ".[2]

يكون الهجاء _إذن_ فعلا يتجه نحو شخص بعينه حسب تعريف الزمخشري، وهو الوقيعة في الأشعار بصفة مجملة على حد تعريف الفراهيدي، أي أنه قد يكون بين الأفراد، أو بين الفرد والجماعة، أو بين الجماعة والجماعة، وهذا الفعل قد يكون هجوميا، كما قد يكون دفاعيا، في محاولة لكشف عيوب ومساوئ تكون قد خفيت، فإن لم تكن كذلك، فإن الإعلام والإشهار يزيدانها انكشافا ووضوحا، ويسرعان من حركة انتقالها بين الناس، فيشتهر صاحبها بها، ولكي يحقق الهجاء هذا الغرض، فهو لا يستطيع أن يتكئ على السباب، أو وصف المظهر الخارجي وصفا يجسد المهجو في صورة بشعة، بل وجب عليه الإستناد إلى كل ما يؤلف كيان المهجو وشخصيته ويركب ذاته، ومن أجل أن يسلبه هدا التآلف ويزعزع هدا التركيب، ويهلهل نسيجه فيجعله صورة ينفر منها الناس، وهكذا " **لم يكن الهجاء عند العرب باعتباره السباب و الإفحاش ولكنه سلب الخلق أو سلب النفس، أو فصل المرء من مجموع الخلق الحي الذي يؤلف قومية الجماعة وتركه عضوا ميتا يتواصفون ازدراءه**".[3]

(1) الزمخشري: أساس البلاغة ، ت: عبد الرحيم محمود، دار الكتب المصرية، القاهرةن لا طبعة، 1953، مادة هجو

(2) الفراهدي: الخليل بن أحمد ، كتاب العين، ج4, ت: مهدي المخزومي وإبراهيم السمراعي, مؤسسة الأعظمي للمطبوعات , بيروت، ط1، 1988، مادة هجو

(3) الرافعي: مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، ج3، دار الكتاب العربي، بيروت، ط6، 2001، ص81.

وبناءا على هذا فإن الهجاء ينقسم إلى قسمين، أولهما هجاء سطحي، يتسلح بالسباب والإفحاش، ويكون آنيا وليد لحظة الغضب وساعة الثورة، وثانيهما هجاء متأن يتسرب إلى الشخص المهجو، ويتغلغل في كل ما تبنى عليه إنسانيته في هدوء، ليهدم هذه المقومات ويقلب هذه الأسس.

"**هجاء إنفعالي خارجي، يعتمد على التعابير المقذعة والتشابية الدنيئة، لعل هدا الهجاء يضعف فيه التعبير الفني ويعتمد على التأثير العصبي، فهو أشبه بالشتائم، وهناك نوع أخر من الهجاء يتنكب عن الألفاظ البذيئة أو الصور الدعرة ويتوسل بالتحليل النفسي الذي يظهر المهجو بصورة تخالف تمام المخالفة الصورة التي ينبغي أن يكون عليها** "[1]

فيكون الفرق بين الأثرين، كالفرق بين فعل الرصاصة في الصخرة، وفعل الماء النازل قطرات على نفس هذه الصخرة، فالفعل الأول قادر على إحداث أثر كبير، لكن الفعل الثاني وحده قادر على نخر هذه الصخرة في هدوء " **ولئن كان النوع الأول من الهجاء أكثر سهولة وأعنف تأثيرا فان الثاني أشد صعوبة وأكثر بقاءا وخلودا، لأنه يعتمد على تحليل النفس البشرية، وما يشخص فيها من تعقيد وازدواج يستثيران السخرية والضحك** "[2]

ونسجل _ مما ذكر أعلاه_ أن أسلوب السخرية من الأساليب المعتمدة في الهجاء، ويكتسب هذا الأخير مشروعيته، لأن هذا النذل أو البخيل، وساقط النفس والهمة، لا يستطيع أن يعيش مع كومة المساوئ هذه بمعزل عن الناس، إنه يتعامل معهم ويعيش قربهم، بناءا على هذا الكيان المستتل من حقل الإنسانية لما تحمله الكلمة من معاني البذل والعطاء والتعاون بغية ارتقاء هذه الذات إلى كل مستحب و مستصاغ من قيم نبيلة مثلى، قد يهدف المهجو إلى تعطيلها أو هدمها واجتثاثها لأنها _ حملة_ لا تتفق مع شخصه وما يسعى إلى تحقيقه في ضل صفات كصفاته.

(1) إيليا الحاوي: فن الهجاء و تطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لا طبعة، لا تاريخ، ص22

(2) المرجع نفسه: ن ص.

وعلى هذا يتحول مستحق الهجاء إلى مشروع تهديمي أو معطل لحركة التطاول نحو المثل والقيم الرفيعة، لذلك قد يصبح لزاما أن يواجه هذا المشروع بمشروع آخر يتحرك ضد الأول في اتجاه معاكس بغرض هدم ما هو مستقبح فج وإعادة بناء ما يمكنه أن يكون مرغوبا، ويصبح الهجاء بهذا المعنى فعلا يمتلك حق الإلتجاء إليه ضد كل ما يستطيع أن يمتلك حصانة تجعله في منأى عنه فعلا يجب أن يمارس من أجل إعادة التوازن إلى مناطق الإختلال في جميع الميادين، ومن هنا يكتسب الهجاء مضامينه السياسية وحتى الأدبية والفنية.

الهجاء _إذن_ وإن كان هدما، فهو هدم فني متخصص، ولا بد أن الإنسان، وهو يعيش واقعه ويتعامل مع غيره، سيلقى منهم ما يسره وما يسوءه فإن كان يمدح في الحالة الأولى ليعبر عن غبطته وارتياحه، فربما كان أجدر به أن يهجو في الحالة الثانية ليعلن عن استيائه وخيبة آماله لذلك فالهاجي، لا يهجو الناس فقط، وإنما يهجو كل ما يستثير فيه السخط والنقمة، ويحرك فيه الإحساس بالاغتراب والانعزال، والشعور بالخوف والانقباض، لذلك فهو قد يهجو زمانه وأيامه وعصره، بل قد يهجو حتى نفسه.

3- تطور الهجاء في العصر العباسي:

في العصر العباسي إختلف الهجاء عما كان عليه مع التغيير الذي طرأ على البيئة والحضارة ونشب صراع بين القديم والجديد، بين العربي والشعوبي وبين المذاهب المختلفة، وأصبح الهجاء يتصل بكل النزعات، السياسية والاجتماعية بالإضافة إلى الأمور التقليدية، ونشأت اتجاهات جديدة في الهجاء، كالإتهام بالزندقة وهجاء المغنيين وهجاء المدن وهجاء العرب وهجاء العجم وهجاء رجال الدين والهجاء الذي ينتقد المجتمع بأسلوب فلسفي.

هكذا نرى أن الهجاء في هذا العصر أصبح هجاء عقيدة يعتمد على الفكر ويتأثر بالحضارة وبالتيارات المختلفة التي تعددت.

ونلاحظ أن الهجاء اقتصر على مقطوعات قصيرة لا تتجاوز البيتين أحيانا، ربما لأن الشاعر كان يريد بذلك سرعة انتشار هذه الأبيات بين جماهير الناس، كذلك مال الهجاء إلى المعاني الشعبية كي يكفل الشاعر انتشارا واسعا لأبياته.

خضع الهجاء _على غرار جميع الفنون_ إلى مراحل معينة، تطور فيها من فن بسيط بدائي إلى فن حضاري معقد، لا يعبر فقط عن حق فرد على فرد آخر أو على قبيلة، ولكن أصبح تجسيد لمشروع يشبه الثورة على كل ما هو قبيح ومشوه، ويرفض كل ما لا تستسيغه الفطرة الإنسانية السليمة، وبعد أن كان الهجاء في العصر الجاهلي بدافع الإنسانية وفي أيام الرسول _صلى الله عليه و سلم_ يقتصر على هجو الأفراد والقبائل بالإرتكاز على المعايب الأخلاقية، سيغدو الهجاء مع التطور الحضاري فنا قائما بذاته يحمل عبء مسؤولية الحفاظ على الفضيلة.

وسنحاول تتبع مسار هذه الرحلة التاريخية لنعرف الكيفية التي تمت بها عملية تطور الشعر الهجائي في العصر العباسي، وسنتعرف على أهم أسبابها وعواملها.

كنا قد عرفنا أن الهجاء هو الوقيعة في الشعر، وهو سلب النفس ما تستحسن وجوده فيها، سواء أكان هذا الهجاء موجها إلى فرد أم إلى قبيلة، وحتى في حال قصر الهجاء على فرد واحد، فإنه لا يخلو من أن يمس القبيلة باعتبارها نسب المهجو وانتماءه، ولم يكن الهجاء غرضا يقال فيه مستقلا عن موضوعات أخرى، حيث كان الشاعر يهجو في أثناء فخره أو حماسيته، حتى أصبح غرض

الهجاء إفتكاك إعجاب الجماهير المصغية من الخصوم وغير الخصوم " وهذا معنى ما نقوله من أن الهجاء أصبح حرفة أو مهنة ".[1]

ودون أن نغمط هذا الهجاء حقه من الناحية التاريخية والفنية، نطمئن إلى أن يعد الشاعر هنا شبيها بالراوي الذي كان يجلس إليه الناس في أوقات فراغهم الكثيرة. ليستمعوا منه على حكايات تاريخية أصبحت شعبية كحكاية عنترة وعبلة وسيف بن ذي يزن وما شابههما من الحكايات التاريخية التي أضاف إليها الخيال الشعبي ما أضاف.

إن الشعر السياسي وشعر النقائض لم يستطيعا حمل الهجاء إلى ذلك المستوى الذي يقدر _ من خلاله_ على إحداث فعل التغيير، وربما أصبح الهجاء في هذا العصر فنا قائما بذاته " وفي هذا العصر نشأت خصومات فنية جعلت من الهجاء فنا قائما لا يهمه هجاء الأحزاب بقدر ما يهمه العمل الصنعاني، لقد غدا الهجاء في العصر الأموي حرفة، وبات مع النقائض أقرب إلى المناظرات الأدبية منه إلى الهجاء الذي اتبعه الجاهليون".[2]

ومع هذا النهج الجديد، أصبح الهجاء فنا لكنه لم يصبح بعد فلسفة، لأنه أصبح يقدم مادة فنية تقوم على الصنعة بدل الطبع وعلى النظر والفحص بدل الإرتجال بالإضافة إلى ما يقدمه من مادة تاريخية هامة، لأن شعراء الأحزاب وشعراء النقائض كانوا حملة ثورة من تاريخ القبائل وأيامها، إنه هجاء مثقف ولكنه ليس هجاء مفلسف.

(1) شوقي ضيف: التطور و التجديد في الشعر العباسي, دار المعارف القاهرة, ط7, لا تاريخ, ص 163

(2) جورج غريب: عصر بني أمية, ص66.

أما في العصر العباسي، فاستقرت الدولة، واتسعت بفعل الفتوح، ووفد على عاصمة الخلافة الوافدون، ونشطت الحركة الأدبية والثقافية والعلمية بفعل ما يتاح من ظروف الإستقرار، وهدأت الخلافات والنزاعات القبلية التي كانت قد أحيتها الدولة الأموية خدمة لمصالحها وتيسيرا لأهدافها.

كما أن العرب اختلطوا بشعوب أخرى وتعارفوا على غيرهم من الأمم واطلعوا على حضاراتهم وتاريخهم، وقرؤوا نتاجهم الفكري والأدبي، ونقلوا منه إلى العربية، وبحلول هذا العصر انتقل العربي عمليا من مرحلة القبيلة والإرتجال والمشافهة إلى مرحلة الدولة والتفكير العميق والكتابة التي أصبحت واقعا مع الدولة العباسية .

أما هذا العصر فقد كان عصر تحضر عميق، ونظر، وفكر، عهد مدنية تضعف منها قوة الفطرة الشعرية وتضيق فيها آفاق الخيال مما يوشك أن تصبح معه مدنية علمية ".[2]

ومن الطبيعي أن يتأثر الفكر بهذه الصبغة الجديدة التي اصطبغ بها العصر، فيصبغ بها الأدب على غرار جميع ميادين الحياة عامة وميادين الثقافة خاصة، واختلف الهجاء في مجتمع متحضر ينفلت تدريجيا من القيود الكلاسيكية وينغمس في كل ألوان الحضارة، ويحرص الفرد فيه على الأخذ بأكثر نصيب من الحياة الدنيا، اختلف الشعر بصفة عامة بل والأدب كله، في مجتمع شأنه شأن كل المجتمعات المتحضرة، أين تتغير المفاهيم حد الإنقلاب في بعض الأحيان، وتسود الفوضى والضباب حياة الفرد، حتى يلهث بحثا عن حقائق انطمست، ويمثل الهجاء وجها من وجوه هذا البحث الحثيث كما يمثل الهجاء الحضري تصارع الإنسان في سبيل اكتشاف الغاية الكبرى التي تجعله يشعر أن لحياته معنى وتحرره من الشعور بالتفاهة والعقم واللاجدوى ".[2]

(1) محمد نجيب البهبيتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث هجري ، مكتبة الخانجي، ط4، 1980، ص274

(2) إيليا الحاوي: فن الهجاء: مرجع سابق، ص 80.

وفي مجتمع تكتسي كل مظاهره الجدة، ويدخل التحديث في كل مؤسساته وينفتح على كل أجناس الأرض، ويتسع لثقافات جديدة، ما كان الفرد العربي ليتعارف عليها لولا الفتوحات واتساع الدين الإسلامي لكل عرق وجنس، ودعوته الصريحة إلى التعارف بين الشعوب والقبائل، هذا التعارف الذي هو غاية خلق الناس على شكل شعوب وقبائل متباعدة ومختلفة، لابد أن يحدث بينهما التواصل والتعارف، حتى و إن كان التباعد في الزمان كما هو حادث في المكان " يَا أَيُهَا النَاسْ إنَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْبًا وقَبَائِلَ لَتَعَارَفُوا إِنَ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اَللهِ أَتْقَاكُمْ".[1]

وأكيد أن هذا التعارف سيجعل الفرد العربي الذي كان منغلقا على بدواته وعروبته، يقف وجها لوجه أمام الآخر، يكتشفه ويكتشف العالم وسط صخب الانتقال من حالة البداوة إلى حالة المدنية وفي ظل هذا التعقيد وهذا الإختلاف الذي سيطر على مفاهيم قديمة عديدة، سيحدث أن لا يبقى هدا الفرد في بساطته وعفويته القديمة، إنها حالة مشابهة لحالة انتقال الإنسان من مرحلة الطفولة بسذاجتها و سطحيتها إلى مرحلة يكبر فيها ويتجاوز أشياءه الأولى وبداهته الطفولية، ويجد نفسه في مواجهة كم من التساؤلات والألغاز يريد حلها وإيجاد أجوبة لها قد لا تقنعه في الغالب الأعم فيزداد توترا و يزداد قلقا، لهذا سيكثر فعل الهجاء ويتعقد، لأنه لن يكون شتما أو استعراضا لمهارات موسوعية تاريخية، بل سيتحول إلى نقد، وربما سيكون الفعل الوحيد القادر على النقد وعلى استرجاع صورة الإنسان الأولى الضائعة في الفوضى" **يكثر الهجاء و يتعقد في البيئات الحضرية حيث يشعر الإنسان أنه ضعيف فاشل بالرغم من مظاهر الجبروت و القوة التي تبدو في بيئته** "[2].

(1) سورة الحجرات: الأية 13.

(2) إيايا الحاوي: فن الهجاء و تطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، ص 30.

والأمر لم يعد مجرد لحظة غضب، أو ساعة يثور فيها الشاعر ليخرج ما بداخله ثم يسكت، إنه قلق وتوتر متواصلين يخلقهما ابتعاد الإنسان عن خطوته الأولى وإحساسه بسلب ذاته أو إحساسه بقهر إحدى مؤسسات المجتمع وممارستها ضغطا عليه.

ولم تعد القصيدة تتسع لفعل النقد الجديد القائم على التبصر والتعمق في النظر والظواهر ومحاولة الإكتشاف، لم تعد القصيدة قادرة على حمل هذا الهجاء الذي أصبح يتضمن فكرا جديدا للإقناع، لأن الشعر _أصلا_ لا يعتمد ولا يتسع لعرض البراهين والإدلاء بالرأي وترسيخ العقيدة ذلك لأنه بطبيعته يتكئ على الجانب العاطفي، كي يرتاح القلب إلى ما يقوله، و لم يعد الإنسان في عصر الحضارة يصغي بقلبه، لقد اتسع إدراكه وتطورت حواسه وحتى يصدق ويقتنع أصبح لابد أن يرى أولا، لأن المجتمع يسير نحو الاستقرار، مما يساعد على إلغاء هذا اللون من الشعر القائم على الهجاء والفحش.

ولعل أول ما نلحظه على شعر الهجاء في القرن الثاني للهجرة اقتصاره على المقاطع القصيرة التي قد لا تتجاوز البيتين، وبذلك انتصرت الفكرة القديمة التي عارضها "جرير" حينما نص على إطالة الهجاء، وأصبحت واقعة في القرن الثاني، لأن طبيعة الحياة بالإضافة إلى عوامل أخرى دعت إلى عدم الإطالة في القصائد عموما، في حين أن الهجاء كان يستلزم ذلك، ليبلغ الشاعر _بأبياته القليلة التي يركز فيها_ معان محددة ما يرجوه من سرعة إيلام المهجوّ، وما يتمناه من سرعة انتشار هذه الأبيات بين جماهير الناس.

وفي هذا يقول الباحث " محمد مصطفى هدارة " **(نجد في الهجاء خلال القرن الثاني للهجرة، ما لا يندمج في قصيدة مطولة مع فنون أخرى كالفخر، أو المدح... فتضل بدلك معانيه طريقها إلى المهجو وإلى جماهير الناس وإنما يصبح فنا مستقلا يقصد الشاعر إليه قصدا، و يخصص له مقطوعة بعينها، لا يترك فيها غرض آخر من أغراض الشعر).**[1]

(1) محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني للهجرة، دار العلوم العربية، بيروت، ط1، 1988، ص460.

ويعتقد الباحث نفسه " **أن التطور الفني الذي حدث، أساسه الهجاء الساخر الذي يستهدف إضحاك الناس على المهجو من ناحية معنوية أو جسمية، ولكنه ليس رسما تصوريا ولكنه رسم (كاريكاتوري) يبعث على الضحك، ويستعين الشاعر في هذا النوع الأصيل بكل معارف عصره، ويجمع عناصر الفكاهة والهزل الشائعة بين الناس** ".[1]

وبما أن الفكر العربي كان قد وصل إلى درجة من الوعي، كما بلغ العقل العربي مستوى عال من النضوج، فقد وجب أن يتجافى التفكير من الأسلوب المباشر في الهجوم، ذلك أن الأسلوب المباشر، يعد طريقة مواجهة تتميز بالقسوة والاندفاع، وهذا ما قد يفقد المرء مودة الناس فينفضوا من حوله، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: " ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ".

فكان لابد من ابتكار طريقة في الهجاء تقف وسطا بين المواجهة العارية المندفعة، وبين الانهزام والتراجع المنكسر، وكلاهما أسلوبان يتجافيان عن الوعي والتحضر، لذلك وجد الهجاء لنفسه طريقا وسطا وهو السخرية فكلاهما يشتركان في الوظيفة، ويختلفان في الطبيعة والمادة " **فالهجاء طريقة مباشرة في الهجوم على العدو، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة في الهجوم**".[2]

إذن فقد تطور الهجاء في القرن الثاني في جميع نواحيه إلى أن ارتقى إلى درجة أن يكون هجاءا ساخرا بما يتطلبه هذا النوع من الهجاء من نضوج الفكر وحدة الذكاء واتساع الحيلة، فيستطيع الهاجي الساخر أن يواجه مشكلته وينال من خصمه في هدوء ولين، أكثر مما يناله غيره بالعنف والقسوة ويقتل خصمه وهو مطمئن النفس مستريح البال فيضحك ملئ شدقيه، و يتلهى بقتيله المتخبط في دمه، ويسلي روحه بمنظره، وقد آمن أن لا يأخذ بجريرته أو يحاسب على قتله.

(1) محمد مصطفى هدارة: المرجع السابق. ص460

(2) طه نعمان محمد أمين: السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع هجري، دار التوفيقية. القاهرة, ط1، 1978، ص13.

ويرى في هذا أيضا الباحث " نور الدين السد " **أن السخرية في الهجاء طريقة تعبيرية متطورة، لجأ إليها الشاعر لنقد الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية والفردية، وتصويرها في صورة شعرية تبعث على السخرية منها، ومحاولة تجاوزها إلى ما هو أفضل، وقد يسخر الشاعر متعابثا متطرفا متهكما، وهو في جميع ذلك يعتمد على المخالطة التركيبية المتخيلة لشخصية المهجو وتشويهها بحيث تدفع للضحك، وهو غاية يصبو إليها الشاعر في أغلب الأحيان.**" [1]

والهجاء الساخر موضوع يهدف إلى الإصلاح والتعبير بأسلوب ساخر يكشف الزيف، ويواجه التشوه على الصعيد الاجتماعي والسياسي والأخلاقي، وقد تطور هذا النمط من الهجاء الساخر وكان هذا التطور نتيجة لعدة عوامل أهمها: التطور الحضاري والإجتماعي الذي شهده المجتمع العربي في هذا العصر.

وانطلاقا من هنا كان من البديهي أن يبحث الهجاء لنفسه عن مجال آخر يقول فيه ما يريد قوله دون أن تحده حدود، أو يتحكم فيما يريد أن يعبر عنه لأي نوع من القيود، وبما أن الشعر _على الرغم من كل ما يمتاز به من خصائص_ تهيؤه ليتبوأ مكانة راقية بين كل فنون القول، إلا أن خضوعه لقيود صارمة، قد يحول دون ما يراد قوله بكل حرية.

وفي العصر العباسي الأول كان موضوع الهجاء يدور حول عدة محاور واتجاهات، فإلى جانب الهجاء الشخصي أو هجاء الأفراد نجد الهجاء السياسي الذي تطور تطورا كبيرا في هذا العصر وكانت بوادره في نهاية العصر الأموي، وقد استفحل هذا الإتجاه في الهجاء بالخلفاء والولاة والأمراء في العصر العباسي الأول، وتزخر كتب الأدب والأخبار والتاريخ القديمة بقصائد كثيرة في هدا الاتجاه، وكثيرا ما كانت ترد القصيدة دون ذكر صاحبها، ولعل مرجع ذلك حسب رأي الباحث "نور الدين السد" هو عدم شهرة أصحاب هذه القصائد بمعنى أنهم من عامة الناس، وهم مقولون في قول الشعر.

(1) نور الدين السد: الشعرية العربية، دار المعارف، ط2، ص 454.

أو لعل ذلك يعود إلى خوف الشعراء من بطش الخليفة، مما دفعهم الى تحاشي دكر أسمائهم ولكنهم لم يتوانوا في التعويض بما يرونه من ممارسات الحكام الخارجة على أحكام الدين والعرق الاجتماعي، لأن الهجاء في هذا العصر كان نتيجة التطور الحضاري والفكري وشيوع اللهو والمجون وحرية المعتقد، وقد خرج عن النضج التقليدي والإطار المحدد له وفقا لروح الإسلام وتعاليمه السمحة، إلى نهج هو أكثر مرونة من سابقه."[1]

ومن التطورات الجديدة التي نلاحظها أيضا على فن الهجاء في القرن الثاني ميله إلى الشعبية في معانيه وأسلوبه، وهذه النقطة ترتبط بالناحية الأولى، لأن موضوع الهجاء في قالب شعبي يجعل معانيه قريبة من نفوس الجماهير، مما يكفل له انتشارا واسعا، وهذا الإقتراب من الشعبية كان يقترن بالميل إلى الهزل والمرح والترفيه، لأن هذه العناصر جزء لا يتجزأ من الطبيعة الشعبية في كل زمان وفي كل مكان، لقد كان الهجاء نفسه يسير في طريق تمكنه من أن يصبح فنا وفلسفة، ولأن يجد طريقة أخري يقود بها نفسه، وأسلوب أخر يهاجم من خلاله بعيدا عن ما لا ترتضيه النفس المتحضرة، وما ينأى بها عن مستوى جمالي وصلت إليه بفضل سنة التطور والتغيير، فيمارس هذا الهجوم، لا لكي يؤلم و يضرب فيوجع، بل لكي يصلح ويلفت انتباه الناس إلى وجوده.

وفي الأخير يتضح لنا أن الهجاء قد تطور تطورا كبيرا في القرن الثاني، تطور في معانيه وأهدافه وأسلوبه وألفاضه وصوره، وقد تراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش، والإبتذال، وبين الإرتفاع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع، الذي يدل على طاقة فنية مبدعة، وذهنية ساخرة، تعتمد على فن أصيل وروح مرحة ضاحكة، تترفع السب الرخيص والاتهامات الدنيئة، وهذا التطور كان أمرا لابد منه خضوعا للعوامل المختلفة التي أثرت في تطور المجتمع نفسه، واختلاف معاييره وقيمه.

4- المتنبي و الهجاء :

سجن المتنبي وتعذب، لأنه كان الشاعر الذي يرفض القهر والظلم، وكان الشاعر الذي يحرض الإنسان دائما، أينما وجده، ضد القهر وضد الطغاة ولأن الشاعر كان صاحب قضية، فلقد كان دائما موضع الشك والحدر من كل السلاطين الذين مر بهم المتنبي ومروا به، كانوا لايريدون شاعرا صاحب قضية، بل كانوا يريدون شاعرا في الحاشية، ومن هنا نشأت كل دوافع الحقد على المتنبي بالنسبة للشعراء، الذين يضعون قصائدهم في المخالي وينطلقون يتوسلون بها، ومن هنا كان حدر السلاطين من المتنبي، فهجاء المتنبي عدة للكفاح يدفع به الضيم، ويرد به السهام إلى صدر راميها .

ما عرف المتنبي الشعر وسيلة للتكسب شأنه في ذلك شأن بشار ودعبل وإبن الرومي، ولا اصطنعه آلة لإظهار ما انطوى عليه من حقد وضغينة، فهو أرفع من أن يعتبره منفردا للعيش، وهو أرحب من أن يكون متعلقا على بغضاء أصيلة فيه، فالمتنبي لم يهج "كافورا" رغبة في نوال مادي، وإنما هجاه لأنه استغله ومناه الوعود الكاذبة، كذلك الحال بالنسبة "لإسحاق إن كيغلغ" فقد هجاه لأنه أخره عن السفر، أما هجاؤه لضبة فقد أكرهه عليه رفاقه الكوفيون[1].

ومعنى هذا أن حب التكسب لم يعرف إلى هجاء أبي الطيب سبيلا، وقد سيطر على هذا الهجاء مظاهر عدة، منها الإقداع، وفحش الألفاظ والمعاني وعنصر القوة، والتشاؤم، والنقمة، والإشمئزاز كما أنه لا يعرف في هجائه إلا الطعن الجارح البليغ، فهو يسخط بقوة، من غير ترو ولا هوادة ينفث كل حقده حتى لا يترك رجاء لشدة ما يضمر من السخط[2].

إن الهجاء عند" المتنبي " مختلف عن الهجاء عند سواه من الشعراء، فقد كانت دوافع الهجاء عند الحطيئة وشعراء النقائض تكسبية وربما حركت من الخارج الشعري، وربما كان الخلفاء لأغراض سياسية أو للتسلية يحركون النقائض التي نسميها "هجاء" وكأن الشاعر ممثل أو مهرج في تللك المسرحية، أما هجاء" المتنبي" فهو مختلف، وهو صادر عن قناعة ذاتية ونفسية، ودافعه داخلي خالص، وهو ليس هجاء قبلي، كما أن "المتنبي" لم يتكسب بالهجاء، بل إنه كان كارثة عليه وربما هو الذي أفضى إلى مقتله حين هجا ضبة بن يزيد العتبي .

---

(1) جورج غريب: المتنبي دراسة عامة، ص263.

(2) حنا الفاخوري: منتجات الأدب العربي، منشورات المكتبة البوليسية بيروت، ط5، ص.332

5- خصائص وأهداف الشعر الهجائي عند المتنبي:

1- أن الشاعر ينطلق من أساسيات لا يحيد عنها، وأهمها القيمة، والقيمة عنده متصلة بالنبل والأصل الرفيع، كما هي الحال في التراجيديا والملاحم، في حين أن الحقارة متصلة بالخساسة كما هي الحال في الكوميديا، ولذلك كان المتنبي شاعراً جدياً في كل شيء، وسخريته اللاذعة ناجمة عن جديته، فهو يؤمن بأن الملوك والأمراء ينبغي لهم أن يكونوا على صورة أسطورية في الكرم والشجاعة والنبل، فإذا وجد في أحدهم عيب فهذا يعني أن الملك في مكان ليس له، ولا يناسبه وهذه سمة عامة في هجائياته.

2- أن المتنبي استخدم في هجائه، وبخاصة لكافور، التصوير الخارجي والداخلي، ففي الصور الخارجية ركز على الأوصاف الواقعية، كاللون وبعض الصفات الأخرى، فالمهجو مخصي وعبد وتتضمن العبودية عنده الخارج والداخل معاً (الشكل والأخلاق)، فهو يركز على سواد كافور (من علم الأسود . وأن مثل أبي البيضاء)، وإذا كان النص يفسر النص كما يقال فإن ما جاء في داليته يفسر ما غمض في بعض أماديحه، فالمتنبي يصب من السخرية المبطنة أضعافاً حين يذكر المتلقي بلون كافور في مقام المديح، كقوله :

مَن لِبيضِ المُلوكِ أَن تُبدِلَ اللَّو *** نَ بِلَونِ الأُستاذِ وَالسَّحْنَاءِ

كان المتنبي في هجائه رساماً يتعامل مع الألوان بمهارة، وهي في شعره ذات دلالات نفسية تحويلية، وقد تعامل مع لونين أساسيين (الأبيض والأسود)، فالأبيض رمز للطهارة والنبل والمكارم والعطاء، والأسود رمز للخسّة والحقارة، ولذلك كان الظاهر يدل على الباطن في هذا الجمال، فلون كافور الأسود يدل على نفسه السوداء الوضيعة.

3- أن المتنبي أجاد في تصوير الأخلاق المنحطة، فهو لم يقبل أن يكون كافور ملكاً وكذاباً ومنافقاً (إني نزلت بكذابين) في آن معاً، ولا يتقبل أن يكون الملك نتناً جسداً وروحاً، حتى إن ملك الموت الذي اعتاد قبض الأرواح بسهولة يتحرز من قبض روح كافور وأرواح من يشبهونه، ويقبل على وظيفته بقرف شديد، بل إنه يجد العصر الذي ينتمي إليه هذا المهجو فاسداً، فكافور إمام

الآبقين في بلد يسهل على هؤلاء أن يكونوا فيه ملوكاً، ولذلك هجا المصرين الذين مكنوا كافوراً من أن يتولى سدة العرش .

4- أن المتنبي استعمل النعوت التي تجسد الوضاعة في مهجوه مباشرة (العبد . الخصي . الخنزير . الكلب . الكركدن.. إلخ)، وهي ألفاظ واصفة دالة على الحقارة والضعة، ويستخدم أحياناً نعوتاً لا مباشرة للهجاء (أبو البيضاء)، والأهم من ذلك كله الدلالة النفسية التي يجدها المرء في أسلوب التصغير الذي دمغ به المتنبي مهجوه، وهو يشير إلى دلالات مكتظة فوق ما تحمل المفردة من معاني التحقير، فقد صغر الخادم، وأطلق على كافور الخويدم:

وَنامَ الخُوَيدِمُ عَن لَيلِنا *** وَقَد نامَ قَبلُ عَمى لا كَرى

فإذا كان الخادم محتقراً فكيف الخويدم؟ وكذا شأن الأحمق في تصغيره (الأحيمق)

أُخِذتُ بمَدحِهِ فَرَأَيتُ لَهواً *** مَقالي للأحيمِقِ يا حَليمُ

وصغر في هجائه لابن كيغلغ مفردة "الأعور"، فقال :

أَتُرى القِيادَةَ في سِواك تَكَسُّباً *** يا ابنَ الأعَيِّرِ وَهيَ فيكَ تَكَرُّمُ

وصغر كافوراً في داليته (كويفير)، كما صغر الأسود (الأسيود)، وتجرأ على عصره فصغر أهل زمانه:

أَذُمُّ إِلى هَذا الزَمانِ أُهَيلَهُ *** فَأَعلَمُهُم فَدمٌ وَأَحزَمُهُم وَغدُ

ولذلك كان المتنبي متصالحاً مع نفسه، وهو لا يصدر إلا عنها، وقد قال أحد دارسيه: "لو كان الهجاء يتضمن النفحات الإنسانية من إشاعة المحبة بين الناس وتعزيز روابطها ونشر المعرفة والعمل بموجبها لكانت أهاجي المتنبي أخلد أشعاره لأنها صادرة عن عاطفة صادقة لا تتكلف معنى تأتي به، ولا تتصنع في تصوير أو تعبير".

5. لا يقتصر الهجاء عند المتنبي على القصائد التي خصصّها بهذا الموضوع، وإنما هو ينتشر هنا وهناك، فقصائد المديح لا تخلو من نفثات ومقاطع هجائية، كهجائه لأهل زمانه في الدالية التي مدح بها محمد بن سيار التميمي، وهجائه المستمر لشعراء عصره في أماديحه.

كما فعل في لاميته التي مدح بها " بدر بن عمار" فقال :

أَرَى المُتَشاعِرينَ غَرُوا بِذَمّي *** وَمَنْ ذا يَحْمَدُ الدَّاء العُضَالا
وَمَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ *** يـَجِدْ مُـراً بِـهِ الماءَ الزُّلالاَ

أو في لاميته التي مدح بها سيف الدولة، فقال :

أَفي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضبْني شُوَيْعِر *** ضـَعِيْف يُـقاوِيني قَـصيرٌ يُطَاوِلُ
لِسَاني بِنُطْقِي صامِتٌ عَنهُ عادِلٌ *** وَقلبي بِصَمْتي ضاحِكٌ مِنْهُ هازِلُ
وَأَتْعَبُ مَنْ نادَاكَ مَنْ لا تُجيبُهُ *** وَأَغْيَظُ مَن عَادَاكَ مَن لا تُشَاكِلُ
وَما التِّيهُ طِبِّي فيهِمِ غَيرَ أَنَّني *** بَــغيضٌ إِلَيَّ الجاهِلُ المُتَعَاقِلُ

وهو لا يتورع عن هجاء الزمان في قصيدة يرثي بها" أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة " فيقول :

إذا ما تَــأَمَّلـتَ الـزَمانَ وَصَرفَهُ *** تَيَقَّنتَ أَنَّ المَوتَ ضرب مِنَ القَتلِ
هَلِ الوَلَدُ المَـتحبوبُ إلّا تــعِلَّةٌ *** وَهَل خَلوَةُ الحَسناءِ إِلاّ أَذى البَعلِ
وَقَد ذُقتُ حَلواءَ البَنينَ عَلى الصِبا *** فَلا تَحسَبَنّي قُلتُ ما قُلتُ عَن جهلِ
وَما تَسَعُ الأَزمانُ عِلمي بِأَمرِها *** وَلا تـحسِنُ الأَيّامُ تَكتُبُ ما أُملي
وَما الدَهرُ أَهلٌ أَن تَؤَمَّلَ عِندَهُ *** حَياةٌ، وَأَن يُشتاقَ فيهِ إِلى النَسلِ

وليس الهجاء مقتصراً على قصائده المختلفة، ولكن القارئ قد يقع على المقطوعة التي لا تزيد على أربعة أبيات في هذا الغرض، فقد أهدى إليه رجل يعرف بأبي دلف بن كنداج هدية وهو معتقل بحمص، وكان قد بلغه أن هذا الرجل ثلبه عند الوالي الذي اعتقله، فكتب إليه من السجن هذه المقطوعة:

أَهونِ بِطولِ الثَـوَاءِ وَالتــلَفِ *** وَالسِــجنِ وَالقــيَدِ يا أَبا دُلَفِ
غَيرَ اختيارٍ قَبِلتُ بــرَّكَ بي *** وَالجوعُ يُرضي الأُسودَ بالجِيَفِ
كُن أَيُّها السِجنُ كيفَ شئِت فَقَد *** وَطّـــنتُ للمـوتِ نَفسَ مُعتَرِفِ
لَو كانَ سُكنايَ فيكَ مَنقَصَةً *** لَم يَكُنِ الدُرُّ ساكِنَ الصَدَفِ

قصائد الهجاء قليلة وطارئة عند المتنبي الذي لم يكن شاعر هجاء، ولكن الظروف أرغمته على ذلك، وهي ظروف نفسية خالصة، ولذلك كانت هذه القصائد هي الأنشط والأصدق تعبيراً عن ذاتيته ونفسيته.

الفصل الثالث

خصائص الهجاء في قصيدة " لا تشتر العبد "

1- بعض من هجاهم المتنبي

2- كافور بين الذاكرة التاريخية والذاكرة الشعرية

3- علاقته بكافور

4- هجاؤه لكافور

5- خصائص الهجاء في قصيدة " لا تشتر العبد "

6- ملحق بقصائد الهجاء المشهورة عند المتنبي

خاتمة

1- بعض من هجاهم المتنبي:

أولى أهاجي المتنبي أبيات في رجلين قتلا جردا وأبرزاه يعجبان الناس من كبره فقال:

لَقَدْ أَصْبَحَ الجِرْدُ المُسْتَغِيرُ *** أَسِيرَ المَنَايَا صَرِيْعَ العَطَبْ
رَمَاهُ الكنَانِيُّ وَالعَـامِرِيُّ *** وَتَلاَهُ لِلْوَجْهِ فِـعْلَ العَرَبْ
كِلاَ الرَجُلَيْنِ أَتَلَى قَتْلَهُ *** فَـأَيُّكَمَا غَـلَّ حُـرَّ السَلَبِ
وَأَيُّكُمَا كَانَ مِنْ خَـلْفِهِ *** فَإِنَّ بِهِ عَضَةً فِي الذَنَبِ

وأبيات في القاضي الذهبي يقول فيها:

لَمَّا نُسِبْتُ فَكُنْتُ إِبْنًا لِغَيْرِ أَبٍ *** ثُمَ اخْتَـبَرْتُ فَـلَمْ تَرْجِعْ إِلَى أَدَبِ[1]
سُمِّيْتَ بِالذَهْبِي اليَوْمَ تَسْمِيَةٌ *** مُشْتَقَةٌ مِنْ ذَهَابِ العَقْلِ لاَ الذَّهَبَ
مُلَقَبُ بِكَ مَا لُقِبْتَ وَيْكَ بِهِ *** يَاأَيُهَا اللَقَبُ المُلْقَى عَلَى اللَقَـبِ

هجاء إسحاق ابن كيغلغ:

بلغ المتنبي وهو بدمشق إن إسحاق بن كيغلغ يتوعد في بلاد الروم فقال:

أَتَانِيْ كَلاَمُ الجَاهِلُ ابْنَ كَيْغَلَغْ *** يَـجُوبُ حُزُونًا بَيْنَنَا وَسُهُولاً
وَلَو لَم يَكُنْ بَيْنَ ابْنِ صَفْرَاءِ حَابِلٌ *** وَبَيْنِي سِوَى رُمْحِي لَكَانَ طَوِيلاً
وَإِسْحَاقَ مَأْمُونٌ عَلَى مَنْ أَهَانَهُ *** وَلَـكِنْ تَـسَلَّىْ بِالْبُـكَاءِ قَلِيْلاً
وَلَيْـسَ جَـمِيْـلاً عِرْضُهُ فَيَصُونَـهُ *** وَ لَيسَ جَمِيلاً أَن يَكُونَ جَمِيلاً
وَيَـكْـذِبُ مَا أَذْلَـلتُـهُ بِهِـجَائِهِ *** لَقَد كَان مِنْ قَبْلِ الهِجَاءِ دَلِيْلاً

(1) ديوان المتنبي: ص13.

ثم ورد الخبر بأن غلمان إبن كيغلغ قتلوه فقال:

قَالُوا لَنَا مَاتَ إِسحَاق فَقُلتُ لَهُمْ *** هَذَا الدَوَاءُ الذِي يَشْفِي مِنَ الحَمَقِ
إِنْ مَاتَ بِلاَ فَـقَدٍ وَلاَ أَسَـفٍ *** أَو عَــاشَ بِلاَ خَلْقٍ وَلاَ خَلَقِ
مِنْهُ تَعَلَّمَ عَــبْدٌ شَــقَّ هَامَـتَهُ *** خَوْنَ الصَدِيقِ وَدَسَّ الغَدْرَ فِي المَلَقِ
وَحَلَفَ أَلْفَ يَـمِيْنٍ غَــيَر صَادِقَةٍ *** مَطْرُودَةٍ كَكَعُوبِ الرُمْحِ فِي نَسَقٍ[1]
مَازِلْتُ أَعْرِفُهُ قِــرْدًا بِـلاَ دَنَبٍ *** خَلْوًا مِنَ البَأْسِ مَمْلُوًا مِنَ النَزَقِ
كَرِيشَةٍ فِي مَهَبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٌ *** لاَ تَــسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ مِنَ القَلَقِ
تَسْتَغْرِقُ الكَفَّ فَوْدَيهِ وَمَـنْكِبَهُ *** فَتَكْتَسِي مِنْهُ رِيحَ الجُورَبِ العَرَقَ
فَسَائَلُوا قَاتِلِيه كَـيْفَ مَـاتَ لَـهُمْ *** مَوْتًا مِنَ الضَرْبِ أَم مَوتًا مِنَ الفَرْقِ
وَأَيْنَ مَوْقِعُ حَدِ السَيفِ مِنْ شَبَحٍ *** بِغَيــرِ جِسْـمٍ وَلاَ رَأْسٍ وَلاَ عُـنُقِ
لَولاَ اللِّثَامُ وَشَيءٌ مِنْ مُشَابَهـَةٍ *** لَكَانَت الأُمُ طِـفلَ لَفٍ فِي خَرَقِ
كَلاَمُ أَكْثَرُ مَنْ تَلَقَى وَ مَنظَرَهُ *** مِمَا يَشُقُ عَلَى الآذَانِ وَ الحَدَقِ

الطرافة الأولى من هذه البيات أنها في هجاء ميت، والثانية أنها ترتفع بهدا الهجاء إلى درجة الحقد، فالشاعر يرى هنا أن الموت هو الدواء الوحيد الذي يشفي خصمه من الحمق، على أن موته وحياته سيان .

هجاء ضبة :

ومن القصائد التي أغفلنا اليازجي من متن الديوان قصيدة في هجاء ضبة ولأول مرة يقتل الشاعر هجاءه، من أبياتها :

مَا أَنْصَفَ القَومَ ضَبَّه *** وَ أُمُهُ الطُرْطُبَة
كَدَا خُلِقْتَ وَمَــنْ ذَا *** الذِي يُغَالِبُ رَبَهُ
مَا كُــنتَ إِلاَّ ذُبَابًا *** نَفْتُكَ عَنَا مَذَبَةً
وَإِنْ بَـعُـدْنَا قَلِيــلاً *** حَـمِلْتَ رُمْحًا وَحِرَبه

(1) جورج غريب : المتنبي دراسة عامة ، ص 272-273 .

وضبه هذا هو ابن يزيد العتبي أو العيني وكان فيمن كان مع الخارجي الذي نجم في بني كلاب وهو المشار إليه في القصيدة التي مدح بها دلير بن لشكرور بالكوفة، وكان من قصة هذا الرجل أن قوما من أهل العراق قتلوا أباه يزيد وسبوا امرأته أم ضبه غدرا بكل من نزل به واجتاز به أبو الطيب في جماعة من أشراف الكوفة فامتنع منهم وأقبل يجاهر بشتمهم فأرادوا أن يجيبوه بمثل ألفاظه القبيحة وسألوا ذلك أبا الطيب فتكفله لهم على كراهة وقال هذه القصيدة وهو على ظهر فرسه[1].

هجاء وردان بن ربيعة :

نزل المتنبي في أرض حسمى برجل يقال له وردان بن ربيعة الطائي فاستغوى وردان عبيد أبي الطيب فجعلوا يسرقون له من أمتعته، فلما شعر بدلك ضرب أحد عبيده بالسيف فأصاب وجهه وأمر الغلمان فأجهزوا عليه ، وقال يهجو وردان من أبيات :

لَئِنْ تَكُ طَيٍّ كَانَت لِئَامًا *** فَالِأُمِهَا رَبِيْعَةَ أَو بَنُوهُ

وَإِن تَكُ طَيٍّ كَانَـت كِرَامًا *** فَـوَرْدَانُ لِغَـيرِهِمْ أَبُوه

مَرَرْنَا مِنْهُ فِي حِسْمَى بِعَبْدٍ *** يَـمُجُّ اللُـؤْمَ مَنْخَرُهُ وَفُوه

أَشُدُ بِعُرْسِهِ عَنِي عَبِيْدِي *** فَأَتْـلَفَهُم وَ مَالِي أَتْلَفُوه

فَإِن شُفِيَـتْ بِأَيْدِيـهِم جِيَادِي *** لَقَد شُفِيَت بِمَنْصَلي الوُجُوه

وقال في العبد الذي قتله أبيات استهلها بقوله :

أَعْدَدْتُ لِلغَادِرِيْنَ أَسْيَافًا *** أَجْدَعَ مِنْهُم بِهِنَّ أَنَافًا

لاَيَرحَمِ اللهُ أَرُؤُوسـًا لَـهُمْ *** أَدَرْنَ عَن هَامِهِنَ أَقْحَافًا

يعني بالغادرين عبيده الذين أرادوا أن يسرقوا خيله يقول أعددتُ لهم سيوفاً أجدع بها أنوفهم، يُقال آنف وأناف وأُنوف وفي البيت الثاني يقول: لا يرحمُ الله رؤوسهم التي أطارت السيوف أقحافها عن هامها.

(1) جورج غريب : المتنبي دراسة عامة ، ص 315-316 .

هجاء الأعور بن كروس:

أما لاذع هجاء المتنبي فمثل قوله يدم الأعور بن كروس، ويستشف منه لون أبي نواس، وابن الرومي:

فَيَا ابنَ كَرْوَسَ يَا نِصْفُ أَعْمَى *** وَإِن تَـفْخَر فَيَا نِصْفُ البَصِير

تَـعَادِيْنَا لِأَنَا غَـيْرُ لَكِن *** وَتَبْغَضُنَا لِأَنَا غَيْرُ عُور

فَلَو كُنْتَ امْرَءًا يَهْجِي هُجُوْنَا *** وَلَكِـن ضَاقَ فَتْرٌ عَن مَسِير

إن هذا المهجو نصف أعمى باعتبار العين الذاهبة ونصف بصير باعتباره الباقية يعادينا حسدا لأننا فصحاء وهو ألكن ولأننا أصحاء البصر وهو أعور، فلو كان ممن يعبأ به ويتكلف هجاؤه بالشعر لفعلنا ولكنك أخس قدرا من أن تستحق هذه العناية كما أن مسافة الفتر تضيق عن المسير فيها[1].

وقال يهجو قوما بهدا الشكل السافر العاري:

أَمَاتَكُمْ مِنْ قَبْلِ مَوْتِـكُم الجَهْـلُ *** وَحَبَّرَكُمْ مِنْ خِفَةٍ بِكُمْ النَمْلُ

ولِيْدُ أَبِي الطَيِب الكَـلْبُ مَا لَكُم *** فَطَنْتُم إِلَى الدَعْوَى وَمَا لَكُم عَقْلُ

وَلَو ضَرَبَكُم مَنْجَنِيـقِي وَ أَصْلَكُم *** قَوِيٌ لَهَدَّتْكُم، فَكَيْفَ وَلاَ أَصْلٌ

وَلَو كُنْـتُم مِـمَن يُدَبِّـرُ أَمْـــرَهُ *** لَمَا صِرْتُم نَسَلَ الذِي مَالَهُ نَسَلٌ

وهناك شاعر اسمه الضب هجاه المتنبي بأبيات استهلها بقوله:

أَيُّ شِعْرٍ نَظَرْتَ فِيهِ لِضَبٍ *** أَوحَدٍ مَالُهُ عَلَى الدَهْرِ عَوْنٌ

وحكى بعض أهل الأدب أن المتنبي التقى في بعض منازل سفره بعبد أسود قبيح المنظر فقال له ما إسمك يا رجل فقال زيتون فقال المتنبي يداعبه:

سَمُوكَ زَيْتُونًا وَمَا أَنْصَفُوا *** لَو أَنْصَفُوا سَمُوكَ زَعْرُورًا

لِأَنَّ فِي الزَيْتُونِ زَيْتًا يُضِيءُ *** وَأَنْـــتَ لاَ زَيْـتًا وَلاَ نـُورًا

(1) جورج غريب : المتنبي دراسة عامة ، ص 269 .

هجاء سوارا الديلمي:

بَقِـيَةُ قَـوْمٍ أَذْنــوا بـِــبُوَار *** وَأَنْضَاءَ أَسْفَارَ كَشُرْبِ عَقَار
نَزَلْنَا عَلَى حُكْمِ الرِّيَاحِ بِمَسْجِدٍ *** عَلَـيْنَا لَهَا ثَوبًا حَصَى وَغُبَارِ
خَلِيلِي مَا هَذَا مَنَاخًا لِمِثْلِنَا *** فَشَدَا عَلَينَا وَارْحَلاَ بِنَهارِ
وَلاَ تَنَكَرَا عَصْفُ الرِيَاحِ فَإِنَّهَا *** قَرى كَلُ ضِيقٍ بَاتَ عِنْدَ سُوَارٍ [1]

هجاء بعض الأعداء من الروم :

لقد ذهب المتنبي إلى حديثه عن الأعداء فلم يتجاوز إلى الاقداع والفحش، فمثل لنا في ذلك جانبا خلقيا في شعر الحماسة والفروسية العربي، لقد وسم المتنبي الأعداء من الروم بالجن والخذلان فهم خائفون من بطش الجيش العربي حتى بات الذي في أقصى بلادهم لا ينام خوفا، ولا يمكن أن تقف حصون هؤلاء الأعداء ومغاورهم وكهوفهم التي كمنوا فيها كما تكمن الحياة في التراب، فالمتنبي لا يقف عند حد تصوير ما حل بالروم وإنما يسخر بهم ويستهزئ، وينذرهم ويتوعدهم من مغبة التمادي في الفتنة والحرب، والتعرض للمسلمين فهو يخاطب ويهجي قائد الروم الدمشتق بعد انكساره أمام المسلمين وهروبه دليلا :

لَعَلَّكَ يَوْمًا يَدَمَشْتَق عَائِدٌ *** فَكَمْ هَارِبٌ مِمَا إِلَيهِ يَؤُولُ
هَجَوْتَ بِإِحْدَى مُهْجِنِيكَ هَارِبًا *** وَيَـسْكُنُ فِي الـدُنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلُ
بِوَجْهِكَ مَا نَسَا لَهُ مِنْ مَرَّشَةٍ *** نَصِـيرُكَ مِنْــهَا رَنَّةٌ وَعَوِيْلٌ
أَغَّرَكُمْ طُولُ الجيُوشِ وَ عِرْضُهَا *** عَلَـيَّ شُـرُوبَ لِلجُيـُوشِ أَكُـولُ
إِذَا لَمْ تَكُن لِلَيْثِ إِلاَّ فَرِيْسَةً *** غَـدَاهُ وَ لَم يَنْفَـعْكَ أَنَّكَ فِيْلُ

(1) جورج غريب : المتنبي دراسة عامة ، ص 306 .
(2) ديوان المتنبي ، ص 27 .

فهم محاطون بالموت، بالموت من الخلف والأمام فيختارون أحد الموتين وليس ذلك اختيارا في الحقيقة لأنهم مضطرون إليه فهم لا محالة هالكون :

مَضَوا مُتَسَابِقِي الأَعْضَاءَ فِيهِ *** لاَ رُؤُوسُهُم بِأَرْجُلِهِم عِثَارُ
يَشُلُّهُم بِكُل أَقَــبّ زُهــْــــــدٌ *** لِفَارِسِهِ عَلَى الخَيْلِ الخِيَارُ
وَكُلُ أَصَــمٍ يَعْسِــلُ جَانِـــبَاهُ *** عَلَى الكَعْبَيْنِ مِنْهُ دَمُ دَثَّار
يُغَــــادِرُ كُلَّ مُلْتَفٍ إِلَيْهِ *** وَلِبْنُه لِثَعْلَبِه وَ جَارُ
وَأَرْهَفَــــتُ العَذَارَى مُردَفَاتُ *** وَاطَئَتْ إِلاَّ صَبِيَةً الصِغَارُ
إِذَا فَاتُوا الرِمَـــاحَ تَنَاوَلَتْـــــهُم *** بِأَرْمَاحٍ مِنَ العَطَشِ القِفَّارُ
يَرَوْنَ المَوْتَ قُدَامــًـا وَ خَلْفـًـا *** فَيَخْتَارُونَ وَ المَوتُ اضْطِرَارُ (1)

إن الأمر يطول ويطول إذا أردنا الإسترسال في شعر المتنبي، لأنه كان مختلفا عن شعراء عصره في عناصر شخصيته وحياته وتجاربه وتطلعاته وطموحه، وهو مختلف في شعره أيضا، وقد قدمنا أمثلة يسيرة في بعض من هجاهم المتنبي، وليس الهجاء عنده لعبة شعرية أو مبارزة بين شاعرين أو ترويضا على فنون القول، وإنما هو تعبير عن حاجة نفسية ولذلك كان هجاؤه مرا وقاسيا ولاذعا وهو فوق ذلك موجع إيجاعا لا مثيل له في شعر الهجاء العربي فضلا عما فيه من الإحتلافات وهو فوق ذلك لا يهجو سوى الملوك والأمراء والشعراء .

(1) الدكتور هادي نهر : مع المتنبي في شعره الحربي ، ط1 ص 167

2- كافور بين الذاكرة التاريخية والذاكرة الشعرية:

لكافور الإخشيدي في الذاكرة العربية صورتان متناقضتان، الأولى صورة تاريخية نقلتها لنا كتب التاريخ، وهي صورة مشرقة تشع بكل صفات الحاكم الناجح من شجاعة وكرم وعدل ودهاء، أما الثانية فهي صورة شعرية مناقضة لكل الصفات السابقة، ومصدرها شعر المتنبي الذي استطاع بشعره وسطوته البيانية أن يحيلها في دهن المتلقي العربي إلى ما يشبه الحقيقة المتوارثة على مر الأجيال، حتى أصبحت كلمة (كافور) بسبب ذلك مرادفه للخيانة، والانتهازية، والخبث، والجبن . واتخذت صورته في دهن القارئ العربي شكلا (كاريكاتوريا) مضحكا على الرغم من أن القارئ لكافوريات المتنبي يمكن أن ينتهي إلى تلك الصورتين المتناقضتين لشخصية كافور بشقيها المعنوي والمادي، فهو في البداية أضفى عليه من الصفات المعنوية والمادية ويضفيه عادة على ممدوحيه الأحرار من الكرم ومن الشجاعة وحسن الشكل، ولكنه حين خاب أمله عنده انطلق من موروثه التاريخي والإجتماعي عن العبيد السود فسلبها منه مضفيا عليه نقيضها من الصفات ، ومدحه وهجاؤه لكافور يدخلان في جدلية التناص بين النص الشعري والمتخيل الجماعي، ويقوم التناص بين النص الشعري والمتخيل كما يقول " الدكتور نادر كاظم " **(إما على المطابقة، حيث النص يطابق المتخيل في دلالاته و يستمد منه كثيرا من صوره، وإما على الانحراف، حيث يقلب النص دلالات الأشياء كما هي معهودة في المتخيل ليبتكر دلالات جديدة ببراعة وإحكام كما فعل أبو الطيب المتنبي في كافورياته التي مدح بها كافور الإخشيدي بمصر ثم هجاه بها ، فهو إن شاء أن يهجو طابق من مطابق شعره ومضامين المتخيل العربي و صوره** "[1].

(1) نادر كاظم ، تمثيلات الآخر ، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط (البحرين : وزارة الثقافة 2004).

ومما يثير الانتباه أن ذاكرة القارئ العربي المعاصر لم تحتفظ إلا بالصورة السلبية التي جاءت في هجاءه لكافور وأغفلت إغفالا كاملا تلك الصورة المشرقة التي رسمها المتنبي في مدائحه وتحدثت عنعها كتب التاريخ وكان القارئ العربي المعاصر يترجم ما تختزنه المخيلة الجماعية عن العبيد فمال إلى تصديق المتنبي هاجيا لمطابقة نصه الهجائي، متخيلة الجمعي المتوارث عن العبد الخصي الذي لا يتمتع بصفات (الفحل الأبيض) .

أ- كافور في الذاكرة التاريخية:

كل المصادر التي أشارت إلى تاريخ كافور السياسي تتحدث عن قائد وملك وسياسي وحاكم عادل ولم ينشر أي مؤرخ إلى أي صفة من الصفات التي هجاه بها المتنبي سوى أنه عبد خصي اشتراه الإخشيد ثم أعتقه لعقله وجزمه وحسن تدبيره، وهو واقع مناقض للثوابت في المخيلة الجمعية التي لا تحيز تلك الصفات إلا بحر ابيض، وهو ما أغاض المتنبي حين اخفق في الوصول إلى هدفه كما سوف نرى لاحقا.

يقول "ابن ثغري بردي " عن كافور : "**الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي، الخادم الخصي، صاحب مصر والشام والثغور، اشتراه سيده أبو بكر محمد الإخشيد بثمانية عشر دينارا ورباه وأعتقه، ثم رقاه حتى جعله من كبار القواد لما رأى منه الحزم والعقل وحسن التدبير ولما مات الإخشيد في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة أقام كافور هدا بأبناءه واحدا بعد واحد**"[1]

وينقل ابن تغري بردي عن الذهبي قوله عن كافور في تاريخ الإسلام أنه كان يدني الشعراء ويجيزهم، وكانت تقرأ عنده السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية، وكان كريما كثير الخلع والهبات حسن السياسة، فطنا، ذكيا، جيد العقل داهية، وكان له نظر بالعربية والأدب والعلم[2].

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين.(بيروت: دار الكتب العلمية 1993/1413)

(2) ابن نغري بردي: المصدر السابق.

كما ينقل عن "أبي المظفر" قوله في تاريخه مرآة الزمان :

" **كان كافور شجاعا مقداما جوادا يفضل على الفحول** "[1] وينقل "ابن خلكان" عن وكيل كافور قوله:" خدمت الأستاذ والجراية التي يطلقها ثلاث عشرة جراية في اليوم، ومات وقد بلغت على يدي ثلاثة عشر ألفا في كل يوم [2] ووصفه بأنه يرغب في أهل الخير ويعظمهم [3] ويتحدث ابن خلدون في تاريخه عن صفاته ودهائه فيصفه بأنه من أعاظم الملوك، جودا، ممدوحا، سيوسا كثير الخشية لله والخوف منه، وكان يداري المعز صاحب المغرب و يهاديه، وصاحب بغداد وصاحب اليمن، وكان يجلس للمظالم في كل سبت إلى أن هلك [4] وقد خصص " الدكتور مصطفى الشكة" فصلا عن مناقب كافور وشجاعته : ومما قاله :" **الحقيقة كاملة أن كافور كان من خير الرجال الدين حكموا مصر في تاريخها الطويل، كان سياسيا بارعا وقائدا مظفرا، وفارسا في الحرب شجاعا يحسن صناعة المحكم ويهيئ الحيز والرخام للناس، وكان متعلما مثقفا ذكيا فطنا كريما محسنا صاحب دين وورع وتواضع** ... " وتشير الوقائع التاريخية إلى أنه لولا كافور لانتهت الدولة الإخشيدية بمجرد موت الاخشيدا الأكبر، ذلك إن كافور هو الذي أقام أبناء بعد وفاة أبيهم ولقد عزم الفاطميون على غزو مصر مند وقت مبكر، ولكنهم كلما هموا بذلك تذكروا أن كافورا هناك، وكانوا يلقبونه بالحجر الأسود و يقولون : " **لن نستطيع فتح مصر قبل زوال الحجر الأسود**".

ويضيف " **الباحث مصطفى الشكة**": " وإذا كان الغرض الأسمى من الحكم هو إسعاد الناس وتوفير الرخام لهم، فقد فعل كافور ذلك مع شعب مصر لقد استغنى الناس في أيامه حسب رواية القلقشندى، ولم يجد أرباب الأموال من يقبل الزكاة منهم فرفعوا أمر ذلك إليه فأمرهم أن يبتنوا بها المساجد و يتخذوا لها الأوقاف ففعلوا"[5].

(1)- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق :إحسان عباس (بيروت، دار صادر د .ت)99/4 .

(2)- ابن خلكان 100/4.

(3)- ابن خلدون . كتاب العبر .(بيروت.دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر 1968)672/4.

(4)- مصطفى الشكة ، أبو الطيب المتنبي في مصر و العراقي (بيروت دار عالم الكتب طب 1403،1983/3).

(5)- المصدر السابق.

هذا هو كافور في الذاكرة السياسية كما حفظتها كتب التاريخ، وهذه هي صورته الحقيقية المشرقة التي أغاضت المتنبي وقد عرفها حق المعرفة، وسجلها صراحة في قصائده التي مدح بها كافورا كما سوف نرى في الفقرة التالية.

ب- كافور في الذاكرة الشعرية :

قلنا في الفقرة السابقة أن المتنبي عرف قدر كافور الحقيقي حق المعرفة : فأشاد بفضائله التي سجلتها كتب التاريخ غير أن كافورا، العبد الخصي كما يراه، ليستحق أن يمدح لولا الضرورة التي أوقفته أمامه والأمل الكبير الذي كان يطمح إليه ويكفي أن نقرأ قوله في مطلع أول قصيدة مدح بها إلى كافور التعرف مدى قسوة ذلك عليه، يقول:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيًا *** وَحَسْبَ المَنَايَا أَنْ يَكُنْ أَمِنيًا

وحين نقرأ مدائحه لكافور نجد كل الصفات التي أثبتها المؤرخون له وذلك من مثل قوله على سبيل المثال لا الحصر[1].

هَده دَوْلَةَ الْمَكَارِمِ و الْرَأْفَةُ *** والمَجْدُ والنَدىْ والأَيَادِيْ

يَزْحَمُ الْدَهْرُ رُكْنُهَا عَلَىْ أَدَانـها *** بِفَتَـى مَــارِدٍ عَــلَى الْمَرادِ

مُتْلِفٌ متخَلَفٌ وفِيْ أَبَـيٌ *** عَالِمٍ حَازِمٍ شُجَاعٌ جَوَادِ

أَجْفَلَ الْنَاسَ عَنْ طَرِيْقِ أبي *** المسك دَلِك لَهُ رِقَابِ الْعِبَادِ

كَيْفَ لا يُتْرَكُ الْطَرِيْقَ لِسَبِيْلِ *** ضَـــيْقٍ عَنْ أَتِيْهِ كتل وَادٍ

ومثل قوله مخاطبا " كافورا " مسقطا في نفسه عن السواد على نفسية " كافور" وكأنه يواسيه للونه الذي ابتلى به ويهون عليه ذلك وهي مفردات تتكرر في مدائحه، وتتم عن رفضه المضمر لمكانة كافور التي لا يستحقها[2].

إن فِيْ ثَوْبِكَ الذي الْمَجْدُ فِيْهِ *** لَضَيَاءٌ بزَيِ بِكُلِ ضِيَاءِ.

إِنَّ الجِلْــدَ مَلْبَسُ ابْيِضَــاضُ *** النَفْسِ خَيْرٌ مِنَ ابْيِضَاضِ القِبَاءِ

كَرَمٌ فِي شَــجَاعَةٍ وَدَكَــاءٍ *** فِي دَهَاءٍ وَقُدْرَةٍ فِي وَفَاءٍ

مِنْ لَبْيَضِ المُلُوكِ أَنْ تُبَدِلَ اللَّوْنَ *** بِــلَوْنِ الأُسْتَاذِ وَ السَحْنَاءِ

(1)- شرح ديوان المتنبي:وضعه عبد الرحمان البرقوقي (القاهرة، الكتب التجارية الكبرى، دت)137/2.

(2)- المصدر السابق158/1.

وقوله يخاطبه[1]:

جَرَى الخِلْفُ إلاَّ فِيكَ إنَّكَ وَاحِدٌ *** وإِنَكَ لَيْثٌ وَ المُلُوكُ ذِئَابٌ

وَإِنَّ مَدِيْحَ النَاسِ حَقٌ وَ بَاطِلٌ *** وَمَدْحُكَ حَقٌ لَيْسَ فِيهِ كِذَابٌ

وقوله يذكر وفاءه لابن سيده الإخشيد:[2]

وَأَنْتَ الذِيْ رَبَيتَ ذَا المُلْكِ مُرْضِعًا *** وَلَيْسَ لَهُ أُمٌ سِوَاكَ وَلاَ أَبٌ

وَكُنْـتَ لَه لَيْــثَ العَرَبِــي لِشِـبْلِــهِ *** وَمَا لَكَ إلاَّ الهُنْدُوَانِي مُخَلَبٌ

وهو في هذه الأبيات يمدحه بالخلال والسجايا التي عرف بها وحفظها له تاريخه السياسي الذي سجله المؤرخون، فالكرم والشجاعة والذكاء والفطنة والوفاء كلها صفات شهد بها التاريخ والمؤرخون لكافور كما رأينا آنفا، وعرفها المتنبي ومدحه بها على الرغم من تناقضها مع موروثه الاجتماعي الذي لا يرى العبد الخصي أهلا لتلك الصفات، وكانت تلك الصفات المشرقة هي سبب قدومه إليه ، فقد روى ابن خلكان أنه لما كثرت الزلازل بمصر في أيام كافور أنشده محمد بن عاصم قصيدة قال فيها :

مَازُلْزِلَتْ مِصْرُ مِنْ سُوءٍ يُرَادُ بِهَا *** لَكِنَهَا رَقَصَتْ مِنْ عَدْلِهِ فَرَحًا[3]

فأمر له بألف دينار، وقيل إن عطاءه ذلك حث المتنبي على السير إلى مصر.

لم يخطئ المتنبي حين اثبت لكافور تلك الصفات والفضائل على الرغم من أنه لم يكن صادقا في مدحه لاحتقاره الرجل مند قدومه إليه ولكن سماعه بكرم كافور غير المحدود، وأغراه بأمل غير محدود فذهب بعيدا في تصور ذلك الكرم، فجاء إلى مصر يحمل أملا كثيرا يضيق عنه كرم أي ملك يعرف طموح المتنبي غير المحدود إلى السلطة ولم يسع المتنبي الإنتصار حتى يقوي موقعه عند كافور بل صرح بذلك الأمل في أولى قصائده أمامه.

(1)- المصدر السابق، 326/1.

(2)- المصدر السابق ، 309/1 .

(3)- المصدر السابق 103/4.

وألح عليه فيما تلا من قصائد، من مثل قوله في قصيدته الأولى :

وَغَيْرُ كَثِيْرٍ أَن يَزُورَكَ رَاجِلٌ *** فَيَرْجِعُ مَلِكًا لِلعِرَاقِيِينْ وَالِيًا

وقوله في قصيدة أخرى(1):

قَالُوا هَجَرَتْ إِلَيْهِ الغَيْثُ قُلْتُ لَهُمْ *** إِلَى غـُـيُوثِ يَدَيْـهِ السَـــآبِيْبُ

إِلَى الذِي تَهِبُ الدَوْلاَتُ رَاحَتَهُ *** وَلاَ بِمَن عَلَى آثَارِ مَوْهُوبُ

وقوله تصريحا لا تلميحا و كأنه يعلن عن نفاد صبره(2):

إِذَا لَمْ تَنْطِ بِي ضَيْعَةٌ أَو وِلَايَةٌ *** فَجُودُكَ يَكْسَونِي وَشُغْلُكَ يُسَلِّي

غير إن حين خاب أمله الكبير في الولاية تنكر لجميع تلك الصفات الجميلة وجحدها في نفسه وراح ينقص كل ما قاله من مديح بهجاء مرصوص فيه كافورا بصورة أبعد ما تكون عن صورته الحقيقية، التي تختزنها الذاكرة الجماعية عن السود والعبيد الخصيان، حتى إن كلمة (كافور) أصبحت في المعجم الشعري المعاصر، كما سنرى مرادفه لتلك المعاني، ويمكن أن نرى مثالا لذلك في الأبيات التالية:

وَنَامَ الخُوَيْدِمُ عَنْ لَيْلِنَا *** وَقَد نَامَ عَمَى لاَ كَرَى

وَكَانَ قَرِيبُـــنَا بَيْنَـــنَا *** مَهَامُه مِنْ جَهْلِهِ وَالعَمَى

لَقَد كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ الخِصِي *** أَنَّ الـــرُؤُوسَ مَقَـــرُّ النَهَى

فَلَمَا نَظَـــرْتُ إِلَى عَـــقْلِـــهِ *** رَأَيْتُ النَهَى كُلَهَا فِي الخَصَى

وَأَسْوَدٌ مَشْـفَرُهُ نِصْفُـــهُ *** يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدَجَى

وَشِعْرٌ مَدَحْتُ بِهِ الكَرْكَدَن *** بَيْنَ التـَرَبُضِ وَبَيْنَ الرَقَى

وَقَد ضَلَّ قَومُ بِأَصْنَامِهِم *** فَأَمَّا بـَـزَقُ رِيـَـاحٍ فَــلاَ

وَتِلْكَ صَمُوتُ وَذَا نَاطِقُ *** إِذَا حَرَكُوهُ فَسَاَ أَو هَدَى

(1) ديوان المتنبي ، 427/4

(2) المصدر السابق ، 296/1

(3) المصدر السابق ، 307/1

ويقول من أخرى[1]:

مِنْ كُلِ رَخْوٍ وَكَـاءَ البَطْنِ مُنْفَتِقٌ *** لاَ فِي الرِجَالِ وَلاَ النِسْوَانِ مَعْدُوْدُ
أَكُلَمَا اغْتَالَ عَبْدُ السُوءِ سَيِّـدَهُ *** أَو خَـانَهُ فَلَهُ فِي مِصْرَ تَمْجِيدُ
صَارَ الخِصِيُّ إِمَامَ الآبِقِين بِهَا *** فَالحُـرُ مُسْتَعِـدٌ وَالعَبْدُ مَعْبُودُ
لاَ تَشْتَرِ العَبْدَ إِلاَ وَ العَصَا مَعَهُ *** إِنَّ العَبِـيدَ لَأَنْجَـاسٌ مَنَاكِيـدُ
مَا كُنْتُ أَحْسِبُنِي أَحْيَا إِلَى زَمَنٍ *** يُسِيءُ بِي فِيهِ كَلْبٌ وَهُوَ مَحْمُودُ
وَلاَ تَوَهَمْتُ أَن النَاسَ قَد فَقَـدُوا *** وَأَنَّ مِـثْلُ أَبِي البَيْضَاءِ مَوْجُودُ
وَأَن ذَا الأَسْوَدِ المَثْقُوبُ مَشْفَـرُهُ *** تُطِيعُه ذِي العَضَارِيْطُ الرَعَادِيدُ

وفي قصيدة أخرى يقول[2]:

مِنْ أَيَةِ الطُرقِ يَأْتِي نَحْوَكَ الكَرَمُ *** أَيْنَ المَحَـاجِمُ يَا كَافُورُ وَالجَلَمُ
لاَشَيءَ أَقْبَحُ مِنْ فَحْلٍ لَهُ ذِكَرٌ *** تَـقُودُهُ أُمُهُ لَيْسَتْ لَهَا رَحِمٌ

ويقول أيضا[3]:

حَصَلْتُ بِأَرْضِ مِصْـرَ *** كَأَنَّ الحُرَّ بَيْنَهُمْ يَتِيْمُ
كَأَنَّ الأَسْوَدَ الأَبِيَ فِيْهِم *** غُرَابٌ حَوْلَهُ رَخَمٌ وَ بُومٌ
أَخَذْتُ بِمَدْحِهِ فَرَأَيْتُ لَهْوًا *** مَقَالِي لِلأَحْمَقِ يَا حَلِيمُ
وَلَمَا أَنْ هَجَـوْتَ رَأَيْتُ عَيًا *** مَـقَالِيْ لِابْنِ آوَى يَا لَئِـيمُ

ويقول في قصيدة يائية[1]:

أَمِيْنًا وَإِخْفَاقًا وَغَدْرًا وَخِسَةً *** وَجُبْنًا أَشَخْصًا لِحْتَ لِي أَمْ
وَتُعْجِبُنِي رِجْلاَكَ فِي النَعْلِ *** إِنَّنِي مُخَـــــــــــــازِيًا
وَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي أَلَوْنُكَ أَسْوَدٌ *** رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتَ حَافِيًا

(1) شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمان البرقوقي (القاهرة : المكتبة التجارية الكبرى د . ت)

(2) المصدر السابق 139/2.

وَيُذَكِرُنِي تَخْبِيْطُ نَعْلَيْكَ شَقَّـــهُ *** مِنَ الجَهْلِ أَمْ قَدْ صَارَ أَبْيَضَ صَافِيًا
فَإِنْ كُنْتَ لاَ خَيْرًا أَفَدْتَ فَإِنَّنِي *** وَمَشْيُكَ فِي ثَوبٍ مِنَ الزَيْـتِ عَارِيًا

هاتان الصورتان لكافور قدمهما المتنبي للقارئ، ولسوء حظ كافور فقد تضافرت هذه الظروف السياسية المعاصرة في مصر التي كان حاكما لها وما تختزنه الذاكرة العربية في المتخيل الجماعي من صورة نمطية للعبد الخصي وعن مكانته في المجتمع العربي، كل هذه الظروف جعلت كافور أضحية مرة أخرى لشعراء معاصرين وقعوا تحت هيمنة المتخيل الجماعي فلم يروا من كافور إلا الجانب السلبي الذي يطابق ما تختزنه ذاكرتهم الجماعية عن العبيد الخصيان فانساقوا وراء الصورة السلبية التي رسمها له المتنبي، وهذا ما سوف نراه في الفقرة التالية .

3- علاقته بكافور:

كافور الإخشيدي : ويقال له الأستاذ كافور ويكنى بأبي المسك أصله عبد حبشي خصي اشتراه الإخشيد من أهل مصر بثمانية عشر دينار حتى أصبح مربي ولديه، وقائد من أكبر قوادها الذين اعتمد عليهم في تأسيس دولته لعقله وتدبيره، وشجاعته وحسن رأيه، فلما مات الإخشيد وكان قد أخذ البيعة من بعده لابنه أبو جور قام كافور قيم عليه لأن الأمير كان لا يزال قاصرا فأصبح الأمير الحقيقي للبلاد، وكان كافور ناحيته المشرقة من طموحه، وهمته التي بلغت به الملك وله ناحية أخرى تضعه وتحط من قدره، ولكنه ليس له يد فيها فهو عبد أسود، خصي مثقوب الشفة السفلى بطين، مشقق القدمين، ثقيل البدن، إلى غير ذلك من صفات جسمية تنأى به عن الجمال والحسن، وقد استغل أبو الطيب المتنبي الناحيتين فنظر إليه من الناحية الأولى حين أراد مدحه ونظر إليه من الماحية الثانية حيث هجاه فأقدح هجاءه[1].

أما كافور-كما جاء في الصبح المبني- فعبد أسود خصي مثقوب الشفة السفلى عظيم البدن مشقق القدمين، ثقيل البدن لا فرق بينه وبين الأمة قيل سئل عنه بعض بني هلال فقال: رأيت أمة سوداء تأمر وتنهى- وكان هذا الأسود لقوم من أهل مصر يعرفون ببني عباس- وقيل عياش- سيستخدمونه في حوائج السوق، وكان مولاه يربط في رأسه حبلا إذا أراد النوم، فإن أراد من حاجة يجدبه بالحبل لأنه لم يكن ينتبه بالصياح، وكان " غلمان ابن طفج " يصفعونه في الأسواق كلما رأوه فيضحك فقالوا أن هذا الأسود خفيف الروح وكلَّم " أبو بكر محمد بن طفج " صاحبه في بيعه فوهبه له وأقامه على وظيفة الخدمة، ولما توفى سيده أبو بكر كان له ولد صغير فتقيد الأسود بخدمته وأخذت البيعة لولده فتفرد[2].

(1)- أحمد بدور أحمد: من النقد و الأدب، ص47.

(2)- جورج غريب:المتنبي دراسة عامة، ص277.

قضية المتنبي مع كافور يسيرة جدا، فهي تنحل في حقيقة الأمر إلى أن المتنبي أحس القلق والضيق عند سيف الدولة، نتيجة قهر الحساد له، هذا ما جعله يفارق سيف الدولة ويلقي بنفسه بين يدي سيده الجديد كافور، بهذه المفارقة فقد حجد ماضيه كله، ورفض آراءه كلها، ونزل حتى خليقا أن يحتفظ به من أيسر الكرامة وأهون الكبرياء[1]. فحط الرحال في بادئ الأمر بدمشق، أين يجد نفسه مطلوب من قبل كافور، فقدم مصر نازلا عند كافور الذي فور وصوله أمرله بمنزل ووكل به جماعة، وأظهر النعمة له وطالبه بمدحه، وكان له ذلك، فالمتنبي شاعر كغيره من الشعراء، ورجلا كغيره من الناس، وقد رفع نفسه فوق قدرها، وزعم ما ليس له من أخلاقها، وطمع فيما لا ينبغي لمثله أن يطمع فيه، ظن نفسه حرا، ولم يكن إلا عبدا للمال، وظن نفسه أبيا، ولم يكن إلا دليلا للسلطان، وظن نفسه صاحب رأي ومذهب ولم يكن إلا صاحب تهالك على المنافع العاجلة التي كان يتهالك عليها أيسر الناس أمرا وأهونهم شأنا، فلم يهج كافورا رغبة في نوال مادي، وإنما هجاه لأنه استغله وأطرحه ومناه الوعود الكاذبة، فالعلاقة بينهما لم تكن سوى علاقة مصلحة لاغير[2].

وقد ربحنا من علاقة المتنبي بكافور الاخشدي شيئا مهما : ربحنا هذا الشعر الذي حفظه لنا ديوان المتنبي بما فيه من مدح وهجاء ، ومن حزن وغناء، فهو من أعدب شعر المتنبي وأرقه، وأصفاه وأصدقه تصويرا للناحية الإنسانية المؤلمة من نفس هذا الشاعر اليائس الحزين .

(1) طه حسين: مع المتنبي ، دار المعارف ،ط13،ص:282-284

(2) جورج غريب ،المتنبي دراسة عامة ص32-33

4- هجاؤه للكافور:

من يقرأ المتنبي فلن تغيب عنه أبيات الهجاء التي قالها في كافور، وربما لم يحفظ بعضهم عنه إلا تلك الأبيات، ومن سمع كافور عن طريق المتنبي فقد لا يسلم أن يكون من الغاوين، إن لم يتساءل عن الحقيقة، أين تكون؟ أما لو قرأنا التاريخ وعرفنا ما كان عليه أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي لتملكنا بعض الحياء من تلك الأبيات المدقعة، ولاستبدلنا الثناء عليه بالهجاء وأعقبا ذلك بالدعاء له بالرحمة والرضوان.

قد يكون هجاء المتنبي في مصر أجود من مدحه، لأن الهجاء يحتاج إلى الفن أكثر من حاجته إلى الحق، فالناقد لا يفتش عن صدقه أو كدبه، بقدر ما يقف عند البراعة فيه وهكذا أبو الطيب فهو بارع في هجائه لكافور والمصريين، وكان أقرب إلى الإتقان منه إلى الصدق.
لقد غدا كافور في هجاء المتنبي أضحوكة، فهو عبد أسود، قبيح المنظر، ضخم الجثة، مشقوق المشفر، غليظ القدمين، خصي، وبتعبير آخر خلع عليه كل صفات الثناء ثم عراه منها، فماذا استفاد هذا الممدوح من المدح، وماذا أصابه من الهجاء؟

إن الناس أعجبوا بأخلاق كافور، ومهارته في السياسة، وحنكته في تدبير شؤون الدولة عندما قرؤوا مدح المتنبي فيه، ثم هزؤوا به عندما سمعوا هجاء الشاعر له، على أن هذا الهزأ لم يبلغ حد الحقارة، لأن أصداء المديح كانت لا تزال تتجاوب مع الآداب وليس من اليسير التلاعب بإفهام الناس وردها إلى الباطل بعد أن عودت الحق، لأن شاعرا كالمتنبي يثور على التقاليد لن ينال كثيرا من رجل ينكر عليه لونه، وإن مادحا يجعل من كافور سيد مصر لن يقوم على هدمه إذا وضع من قدر له أصله، ولو لم يكن كافور الإخشيدي حاكما مقتدرا بارزا في عصره لما قصده المتنبي في مصر، وكفى بهذا مكرمة، ولو لم يكن لكافور من الفطنة والإقتدار في الحكم، لما مدحه المتنبي بأفضل شعره، فهل نصدق المتنبي في ثنائه السابق أم في هجائه اللاحق؟

من أهاجي المتنبي في "كافور" أبيات يائية، سار فيها على غرار أولى مدائحه فيه من حيث الوزن والقافية، وهي التي تقول فيها:

أُرِيكَ ٱلرِضَا لَو أَخَفْتَ النَفْسَ خَافِيًا *** وَمَا أَنَا عَنْ نَفْسِي وَلاَ عَنْكَ رَاضِيًا
أَمِيْنًا وَإِخْلاَفًا وَغَـــــدْرًا وَخِسَـــةً *** وَجُبْنًا أَشَخْصًا لِحْتَ لِي أَمْ مُخَازِيًا
تَظُنُّ ابتِسَامَتِي رَجَـاءًا وَغِبْطَةً *** وَمَا أَنَا إِلاَّ ضَاحِكٌ مِنْهَا رَجَائِيَا
وَتُعْجِبُنِي رِجْلاَكَ فِي النَعْلِ إِنَّنِي *** رَأَيْتُ ذَا نَـــعْلٍ وَإِن كُنْـتَ حَافِيًا
وَإِنَكَ لاَ تَدْرِي أَلَوْنُـــكَ أَسْـــوَدٌ *** مِنَ الجَهْلِ أَم قَد صَارَ أَبْيَضٌ صَافِيًا
وَيذْكُرُنِي تَخْطِيطُ كَعْبِكَ شَقُّـــهَ *** وَمَشْيُكَ فِي ثَوْبٍ مِنَ الزَيْتِ عَارِيًا
وَلَولا فُضُولُ النَاسِ جِئْتُـكَ مَادِحًا *** بِمَا كُنْـتَ فِي سِرِي بِهِ لَكَ هَاجِـيًا
فَأَصْبَحْتَ مَسْرُورًا بِمَا أَنَا مُنْشِدٌ *** وَ إِن كُنْتَ بِالإِنْشَادِ هَجُوكَ غَالِيًا
فَإِنْ كُنْتَ لاَ خَيْرًا أَفَدْتَ فَإِنَّنِي *** أَفَدْتُ بِلَحْظِي مَشْرَفِيكَ المَلاَهِيَـا
وَمِثْلُكَ يُؤْتَى مِنْ بِلاَدٍ بَعِـيدَةٍ *** لِيُضْحِـــكَ رَبَّاتِ الحِدَادِ البَوَاكِيَا

فالمتنبي _في هده الأبيات _ ساخط على كافور وعلى نفسه معا، حيث أنه سعى إلى نقد ما كان يقول في كافور من مدح، لأن الآمال التي عقدها على سيد مصر باءت بالفشل، فقد كان أسير الرغبة والحب حينا، وأسير الرهبة والبغض أحيانا، فنتج عن ذلك تشتيت بين المدح والهجاء.

وللمتنبي في هجاء كافور قصيدة مشهورة قالها قبل خروجه من مصر بيوم واحد، في سنة ثلاثمائة وخمسون للهجرة، بعد أن عمل على الرحيل من مصر في ستر، فأعد الإبل وخفف الرحل ودفن الرماح في الرمال، منتهزا فرصة حلول عيد الأضحى، وانشغال كافور بمراسم العيد واستغرقت رحلة هروبه من مصر بمغامراتها العديدة ثلاث أشهر، وكانت أولى قصائد الشاعر في الكوفة قصيدته التي يقول في مطلعها:

أَلاَ كُلَّ مَاشِيَةِ الخَبْزَلِي *** فَدَى كُلَ مَاشِيَةِ الهَيْدَبِي

لقد كان شعر المتنبي في مصر دو لهجة قوية يملؤه الحزن والكره، ويصل المتنبي إلى كافور وأصحابه، فيهجوهم ناعتا إياهم بالكذب والغدر والإخلاف بالوعد.

مَا يَقْبِضُ المَوْتُ نَفْساً مِنْ نُفُوسِهِم *** إلاَّ وَفِي يَدِه مِنْ نِتْنِهَا عَودُ

فيا لتلك الأرواح النتنة اللئيمة، التي إذا هم الموت يقبضها لم يباشرها بيده تقذراً من نتنها بل يتناولها بعود كما ترفع الجيفة.

ثم يعود مصورا حالته في مصر أنداك في قصيدته الميمية التي بدأت بالضحك لتنتهي بحزن فلسفي عميق، ثم بتحريض ساخر على اغتيال كافور، يقول فيها:

مِنْ أَيَةِ الطُرُقِ يَأْتِي مِثْلُكَ الكَرَمُ *** أَيْنَ المَحَاجِمُ يَا كَافُورُ وَالحِلَمَ

جَازَ الأَلَى مَلِكَتْ كَفَّاكَ قَدْرَهُمْ *** فَعَرَّفُوا بِكَ أَنَّ الكَلْبَ فَوقَهُمْ

سَادَاتُ المَاسِ مِنْ نُفُوسِهِم *** وَسَادَةُ المُسْلِمِيْنَ الأَعْبَدُ القَزَمُ

أَغَايَةُ الذِينَ تَحِفُوا شَوَارِبَهم *** يَا أُمَةً ضَحِكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الأُمَمُ

أَلاَ فَتَى يُورِدُ الهِنْدِيَ هَامَتَهُ *** كَيْماَ تَزُولُ شُكُوكُ النَاسِ وَالتُهَمِ

فَإِنَّهُ حُجَةٌ يُؤْدِي القُلُوبَ بِهَا *** مِنْ دِيْنِه الدَهْرُ وَالتَعْطِيلَ وَالقَدَمَ

مَا أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يَجْزِي خَلِيفَتَهُ *** وَلاَ تُصَدِقْ قَوْمًا فِي الذِي زَعَمُوا[1].

وفي هده القصيدة تشخيص واضح لحالته التي تملكها الحزن والأسى، وهو يقول لنا كيف يصل الكرم إلى كافور وهو بين المحاجم والمقايض، ثم يغري أهل مملكته بأن ملكهم كلب، فكيف رضيتم به وهو عبد أسود لئيم، ثم يقول لأهل مصر لاشيء عندكم من الدين إلا أحفاء الشوارب حتى ضحكت منكم الأمم حين ملكتم عليكم الأسود ورضيتم بطاعته، وبعد هذا يحرضهم على قتله، إذ أن تمليك مثله يبعث على الشك في حكمة الله تعالى ويوقع في الظنون أن العلم معطل فهل من صانع يدبره، وتمليك كافور حجة للدهر أن يقول لو كان للناس مدبر وكانت الأمور جارية على تدبير حكيم لما ملك هذا العبد.

(1) جورج غريب: المتنبي دراسة عامة, ص290

وللمتنبي في كافور مقتطفات أخرى مزج فيها الإجابة بالسخف وهي خليقة بالعناية لما فيها من غناء حزين، أولها ميميته التي يقول فيها:

أَمَا فِي هَذِه الدُنْيَا كَرِيـمٌ *** تَزُولُ بِهِ عَنِ القَلْبِ الـهُمُومُ
أَمَا فِي هَذِه الدُنْيَا مَكَانٌ *** يُسَـرُ بِأَهْـلِهِ الجَارُ المُقِيمُ
تَشَابَهَتْ البَهَائِمُ وَ العَبْدِيُ *** عَـلَـيْنَا وَالمَـوَالِيْ وَالصَـمِيـمُ
وَمَا أَدْرِي إِذَا دَاءٌ حَـدِيثٌ *** أَصَابَ النَـاسَ أَم دَاءٌ قَـدِيمٌ
حَصَلْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ عَلَى *** عَبِيدٍ كَـأَنَّ الحُرَّ بَيْـنَهُمْ يَتِـيمٌ
كَأَنَّ الأَسْوَدَ الأَبِيَّ فَيْهِم *** غُـرَابٌ حَـولَهُ رَخَمٌ وَ بُومٌ
أَخَذْتُ بِمَدْحِهِ فَرَأَيْتُ لَهْوًا *** مَـقَالِي لابْنِ آوَى يَا لَـئِيمُ
فَهَلْ مَنْ غَـادَرَ فِـي ذَا *** فَمَـدْفُوعٌ إِلَى السَقَمِ السَقِيمُ[1]

فالشاعر هنا يشبه كافور لسواده بالغراب ويشبه أصحابه بخساس الطير حوله، إن المتنبي أكره على مدح الأسود، مدحه فرأى من اللهو أن يصفه بضد ما هو فيه، ثم هجاه فوجد من الغي أن ينعته بظاهر حاله، فهل من يعذره في مدحه وفي هجوه، إنه كان مضطرا إلى ذلك الذي أتاه على غير اختيار، كما يأتي المرض على المريض، وهو إذا أساء إليه وضيع ولو يوجه اللوم إليه، فإلى من يوجهه، وخرج أبو الطيب من عند كافور يوما فقال هذه الأبيات:

أَتُوكَ مِنْ عِيْدٍ وَمِنْ غَرْسِهِ *** مَنْ حَـكَّمَ العَبْدَ عَلَى نَفْسِهِ
وَإِنَمَا يَظْهَرُ تَحْـكِيمَـهُ *** تَحْكُمُ الإِفْسَادَ فِي حِسِّهِ
لاَ يُنْجِزُ المِيعَادَ فِي يَوْمِهِ *** وَلاَ يَعِي مَا قَـالَ فِي أَمْسِهِ
فَلاَ تَرْجَ الخَيْرَ عِنْدَ امْرِئٍ *** مَرَتْ يَدُ النَخَّاسِ فِي رَأْسِه
فَقُلْ مَا يَلْـؤُمُ فِي ثَـوْبِهِ *** إِلاَّ الذِي يَلْؤُمُ فِي غَرْسِهِ

(1) جورج غريب: المتنبي دراسة عامة، ص 293.

معنى ذلك أن من حكم العبد الأسود على نفسه فهو أحمق من العبد ومن الأمة، فهو يعاتب نفسه حين قصد الأسود فاحتاج إلى طاعته وتحكيم العبد يدل على تحكيم الفساد في عقل من يحكمه لسوء اختياره. إن كافور لا ينجز الميعاد في يومه الذي وعد به، وإذا انقضى ذلك اليوم نسي ما وعده فغفل عن الوفاء، فلا تأمل الخير في عبد رأى الهوان والذلَّ وسيق كما تساق الدواب، إن اللئيم في نفسه، فلما تراه إلا وهو مولود من أصل لئيم، واللئيم حتى وأنت أكرمته سيتمرد، فشتان بين الكريم واللئيم، فأنت إذا أكرمت الكريم ملكته، وإن أكرمت اللئيم تمردا.

وفي ربيع الأول سنة ثلاثمائة وواحد وخمسون، ورد المتنبي إلى الكوفة فقال قصيدة يصف بها طريقة هجو كافور، وفيها أبيات خالدة بلغ بها الشاعر أعلى مراتب الوصف نذكر منها:

وَمَاذَا بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكَاتِ *** وَلَـــكِنَهُ ضَـحِكٌ كَالْبُكَا

بِهَا نَبْطِيٌّ مِنْ أَهْلِ السَـــوادِ *** يَدْرُسُ أَنْسَابَ أَهْلِ الفَلاَ

وَأَسْـوَدُ مَشْـــفَرُهُ نِصْـــفُهُ *** يُقَالُ لَهُ أَنْتَ بَدْرُ الدَجَى

وَشِعْرٌ مَدَحْتُ بِهِ الكَـــرْكَدَنْ *** بَيْنَ القَرِيْضِ وَبَيْنَ الرَقَى

فمَـــــا كَانَ ذَلِكَ مَدْحًا لَهُ *** وَلَكِنَهُ كَانَ هُجَوا الوَرَى

وَقَدْ ضَـلَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِم *** وَأَمَّا مَا بَزَقَ رِيَاحٌ فَلاَ

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسَهُ قَـــــدْرَهُ *** رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لاَ رَأَى

قال الو احدي: أراد المتنبي"بالنبطي السوادي" "أبو الفضل بن خنزابة" وزير كافور، وقيل "أبو بكر المادراني السنابة"، وفي مصر أسود قبيح الخلقة تكاد شفته تكون قدر نصفه، وهو هناك يشبه البدر فهم يموهون عليه بالكذب فيصدقهم، ثم يشبهه بالكركدن لضخامة جثته وقلة معناه، وأن ذلك الشعر الذي مات يمدحه به لغاية كان يصبو إليها المتنبي لكي يأخذ ماله، ثم يستدرك فيقول ما كان شعري مدحا وإكراما له وإنما هو على الحقيقة هجو للناس كلهم وهو بذلك منتهى التحقير.

وجاء في "الصبح المبني" أنه وجد لأبي الطيب قصيدتان في هجاء كافور ومدح سيف الدولة، وذكر أنهما وجدتا في رحلته لما قتل وكان قد نظمهما بواسطة إحداهما فيقول:

أَفِيْقَا خِمَارًا لَهُم بِعَضَتِي الخَمْرَا *** وَسُكْرِى مِنَ الأَيَامِ جَنْبِيَ السُكْرَا

قَطَعْتُ بِسَيْرِي كُلَّ يَهْمَاءُ مَفْزَعٌ *** وَجُـبْتُ بِخَيْلِي كُلَّ صَرْمَاءُ بِلَقْعِ

ويقول في الأولى بعد فخر رفيع المستوى تتضح منه المرارة، يهجو كافورا ويلمح إلى سيف الدولة بالمديح ويعرض بأهل مصر جميعا:

أَصْبَحْتَ مُلُوكَ الأَرْضِ مُغْتَبِطاً بِهِـمْ *** وَمفارَقْتَهُمْ مَلأَنَّ مِنْ خَنْقِ صَدْرًا
وَلَمَا رَأَيْتُ العَبْـدَ لِلـحُرِّ مَالِكـًـا *** أَبِيْتُ أَبَاءَ الحُرِّ مُسْتَرْزِقًا حُرًا
وَمِصْرَ لَعُمْرِي أَهْــــلُ كُلَ عَجِيبَـــةٍ *** وَلاَ مِثْـلُ ذَا المَخصِي أُعجُوبَة بَكـرَا
يُعد إذا عَـدَا العَــــــــجَائِبُ أَوَّلَا *** كَمَا يَبْتَدأُ فِي العَدِّ بِالأَصْبَعِ الصُغرى

ومنها يذكر أم كافور:

نُوْبِيَةَ لَمْ تَـدْرِ أَن بُنَيـَّــــــهَا *** النُوبِيُ دُونَ اللهِ يُعْبَدُ فِي مِصرَا
وَاللهُ آيَات وَ لَيسَ كَهَـذِه *** فَإِنَّكَ يَا كَافُور آيَتَه الكبُرى
وُاكْفُر يَا كَافُور حِين تَلُوح بِــي *** فَفَارقْتَ مُذ فَارَقَتْكَ الشِركَ وَالكُفْرَا
وَفَارَقْتَ خَيَرَ النَاسِ قَاصِدًا شَرَهم *** وَأَكــــــرمهَم طَـرًا لِأُمِـــــهم طَرًا
فَعَاقَبَنِي المَخصِيُ بِالغَدْرِ جَازِيًا *** لِأَن رَحِيلِي كَانَ عَنْ حَلَب غَـدْرًا
وَقَد رَأَى الخَنْــزِيرَ أَنِي مَدَحْتـُـــه *** وَلَو عَلِمُوا قَد كَانَ يَهْجِي لَمَا يَطوَى

ويقول المتنبي في القصيدة الثانية هاجيا الأسود بأقصى النعوت ممهنا في التصريح بما يحتفظ لسيف الدولة من غابر الورد:

وَفَارِقْتُ مِصرَا وَالأُسَيُودَ وَأَنِنِي *** حَذَار مَسِيرِي تَستَهِلُّ بِأَدْمُعِ
أَلَم يَفْهَم الخَنْثِيُ مَقَالي وَأَننِــي *** أُفَارِقُ مَن أَقْلَى بِقَلْبٍ مُشَيعِ
أَيَا النَتِنُ قَد قَيدْتَنِي بِمَواعِدَ *** مَخافَة نَظْمٍ لِلْفُؤَادِ مُرَوِعِ
وَقَدرتَ مِن فَرطِ الجَهَالَةِ إِننِي *** أُقِيمُ عَلَى كَذِبٍ رَصِيفٍ مُصَنَّعِ
أُقيمُ عَلَى عَبدٍ خِصيِ مُنَــافِـقٍ *** لَئِيمٍ رَدِيءِ الفِعلِ لِلجُودِ مُدَعِ
وَأَترِكُ سَيفَ الدَولَةِ المَلِكَ الرَضِي *** كَـرِيمِ المَحَيى أَروعًا وَ ابنَ أَرْوَعِ

إن المتنبي أساء إلى نفسه بهذا الهجاء بقدر ما أساء إلى مهجوه، ومع هذا فلا نستطيع أن ننكر عليه الإجادة الفنية، فقد بلغ ما أراد حين مسخ وشوه صورة كافور في نظر قومه، وصور خنوع المصريين وخضوعهم لهذا السيد الذي كان بالأمس القريب يجر في الأسواق ويباع ويهان، ولو لا هجاء المتنبي لكانت شخصية كافور مثلا فريدا للطموح والتحدي، إذ كيف يتمكن عبد حقير _يباع بدنانير معدودة_ من أن يصبح مقربا من الحاكم المصري، ثم يستطيع باقتدار أن يتولى زمام الأمور بعد موته، وليس هذا فحسب بل كسب حب الناس، ورضاهم بعدله وإدارته الحكيمة، حتى أنه كان يدعى له في الحرمين الشريفين والمنابر الإسلامية المشهورة.

وإذا نظرنا من جانب الاقتدار والموهبة، ومن جانب التدين، فنحن أمام رجل كان شهما شجاعا ذكيا، جيد السيرة، هكذا قال عنه ابن كثير في تاريخه.

5- خصائص الهجاء في قصيدة:

" لا تشتر العبد "

عيدٌ بِـــأَيَّةِ حــالٍ عُــــدتَ يا عيدُ *** بِما مَضى أَم بِأَمرٍ فيكَ تَجديدُ
أَمّــا الأَحِبَّــةُ فَالبَيــداءُ دونَهُــمُ *** فَلَيتَ دونَـكَ بيــدًا دونَها بيدُ
لَولا العُلا لَم تَجُب بي ما أَجوبُ بِها *** وَجنـاءُ حَرفٌ وَلا جَرداءُ قَيدودُ
وَكـانَ أَطيَبَ مِن سَيفي مُضاجَعَةً *** أَشبــاهُ رَونَقــِهِ الغيدُ الأَماليدُ
لَم يَترُكِ الدَهرُ مِن قَلبــي وَلا كَبِدي *** شَيئًــا تُتَــيِّمُهُ عَينٌ وَلا جيدُ
يا سـاقِيَيَّ أَخَمرٌ فـي كُــؤوسِكُمـا *** أَم في كُؤوسِكُما هَـمٌّ وَتَسهيدُ
أَصَــخرَةٌ أَنا مــالــي لا تُحَـرِّكُني *** هَذي المُدامُ وَلا هَذي الأَغاريدُ
إِذا أَرَدتُ كُـمَيتَ اللـوَنِ صافِيــةً *** وَجَدتُها وَحَبيبُ النَـفسِ مَفقودُ
ماذا لَقيــتُ مِنَ الدُنــيا وَأَعجَــبُهُـا *** أَنّي بِمــا أَنا باكٍ مِنهُ مَحسودُ
أَمسَــيتُ أَروَحَ مـــُثرٍ خـازِنًا وَيَدًا *** أَنــا الغَنِيُّ وَأَموالـي المَواعيدُ
إِنّــي نــزَلــتُ بِكَـذّابيـنَ ضَـيفُهُمُ *** عَنِ القِرى وَعَنِ التَرحالِ مَحدودُ
جـودُ الرِجـالِ مِنَ الأَيدي وَجـودُهُمُ *** مِـنَ اللِسانِ فَلا كانوا وَلا الجودُ
مــا يَقبِضُ المَوتُ نَفسًا مِن نُفوسِهِمُ *** إِلّا وَفــي يَـدِهِ مِن نَتنِهـا عـودُ
مِـن كُـلِّ رِخـوِ وِكاءِ البَطنِ مُنفَتِقٍ *** لا في الرِجالِ وَلا النِسوانِ مَعدودُ
أَكُلَّمــا اغتــالَ عَبدُ السـوءِ سَيِـدّهُ *** أَو خــانَهُ فَلَـهُ في مِصرَ تَمهيدُ
صـــارَ الخَصِيُّ إِمــامَ الآبِقينَ بِهـا *** فَالـحُرُّ مُستَعبَـدٌ وَالعَـبدُ مَعبودُ
نــامَت نَواطيرُ مِصـرٍ عَن ثَعـالِبِها *** فَقَـد بَشِمــنَ وَما تَفنـى العَناقيدُ
العَبـدُ لَـيسَ لِـحُرٍّ صــالِحٍ بِــأَخٍ *** لَــو أَنَّهُ في ثِيــابِ الـحُرِّ مَولودُ
لا تَشــتَرِ العَبــدَ إِلّا وَالعَصــا مَعَـهُ *** إِنَّ الـعَبيدَ لَأَنجــاسٌ مَنــاكيـدُ
مــا كُـنتُ أَحسَبُـني أَبقــى إِلى زَمَنٍ *** يُسيءُ بي فيــهِ كَلبٌ وَهوَ مَحمودُ
وَلا تَــوَهَّمــتُ أَنَّ النـــاسَ قَـد فُقِدوا *** وَأَنَّ مِثــلَ أَبي البَيضـــاءِ مَوجودُ
وَأَنَّ ذا الأَســوَدَ المَــثقـوبَ مِشــفَرُهُ *** تُطيـعُهُ ذي العَضـاريطُ الرَعــاديدُ
جَوعـــانُ يَأكُــلُ مِن زادي وَيُمسِـكُني *** لِـكَي يُقــالَ عَظيـمُ القَدرِ مَقصودُ
إِنَّ امــرأً أَمَـــةٌ حُبــلــى تُــدَبِـرُّهُ *** لَمُـستَضـامٌ سَخـينُ العَيـنِ مَفؤودُ
وَيلُـمِّهـا خُطَّـةً وَيلُــمِّ قـابِلِـــهـا *** لِـمِثلِهــا خُلِــقَ المَهرِيَّـــةُ القُودُ

وَعِندَهـا لَذَّ طَـعمَ المَـوتِ شـارِبُهُ *** إِنَّ المَنِيَّـةَ عِـندَ الـذُلِّ قِنـديدُ
مَـن عَلَّمَ الأَسـوَدَ المَخصِيَّ مَكرُمَـةً *** أَقـوَمُهُ البيـضُ أَم آبائُـهُ الصيدُ
أَم أُذنُـهُ في يَـدِ النَخّـاسِ دامِيَـةً *** أَم قـدرُهُ وَهوَ بِالفـلسَينِ مَـردودُ
أَولـى اللـئـامِ كُوَيفيـرٌ بِمَـعـذِرَةٍ *** فـي كـلِّ لُـؤمٍ وَبَعـضُ العُـذرِ تَفنيدُ
وَذاكَ أَنَّ الفُـحـولَ البـيـضَ عـاجِـزَةٌ *** عَـنِ الجَمـيلِ فَكَـيفَ الخِصيَةُ السودُ

أ- مناسبة القصيدة:

كان أبو الطيب وصل إلى مرحلة اليأس والقنوط والإحباط في مصر، ودخل في مرحلة نفسية معتمةٍ، فلا هو في العير ولا هو في النفير، أهمل مجالسَ كافور، فما عاد يتردد عليها، وحين كان يطلب منه قصيدة مادحة كان الشاعر الحزين يرفض القول والنشيد فلا ينقاد للطلب وهجَر عِشرةَ الناس، ولقاءَهم، وصار ينفرد بذاته، ويخلو بنفسه، ويجتر آلامه، ويرسم الخطط التي تنقذه من هذا الشَّرَك الذي أوقعه به كافور.

وبدأ المرجل النفسي يغلي شيئاً فشيئاً، ويضطرب ويزداد اضطراباً، ثم راح يقذف بالزبد، ويتعالى صوت جَيَشانه ، وقبل أن يطفح الكيل ، جاء إلى كافور وسأله صراحة عن وعده بحكم ضيعة أو ولاية أو أي مكان ، وبَيَّن له أنه ما قدِم إلى مصر إلا بعد أن اطمأنّ إلى وعوده البراقة . فأجابه كافور: " أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين سَمَتْ نفسك إلى النبوة، فإن أصبتَ ولاية صار لك أتباع، فمن يطيقك ؟ ".

وسواء أكان رد كافور عنيفاً أم لا، فهذا لا أهمية له، فلن يخدع الشاعر بعد الآن لقد كانت نقمته على الرجل الملوّن المخادع، وخيبة أمله في انهيار مشاريعه عظيمتين.

ولم يخطئ كافور في تعرف نوايا أبي الطيب، فقد أدرك حقيقة مشاعره نحوه، وكان يعلم أنه سيفرُّ من الفسطاط عند سنوح أول فرصة، وأنه سيعقب فراره بشعر هجائي وسخرية لاذعة، فنشر الجواسيس يراقبون أبا الطيب ؛ وعرف المتنبي كل هذا، فكظم غيظه وأخفى عواطفه وخططه، ويبدو أنه أتخذ لنفسه حراساً انتقاهم من عبيده الأشداء لمقاومة كل هجوم محتمل .

وكانت خطته زيادة في إمكانية نجاحها أن يغتنم فرصة احتفالات الناس بعيد الأضحى للخروج من الفسطاط ، وكان التاسع من شهر ذي الحجة ، وهو مناسبة تجري فيها مراسم واستعراضات ، تجلب جمهوراً كبيراً من الناس ، وهي خير فرصة للهرب والتخفي .

في اليوم التاسع من الشهر المذكور ، خرج المتنبي سراً من الفسطاط ، تتقدمه الإبل المحملة بالسلاح والأمتعة والزاد لعدة أيام ، وأغذَّ السير، فاجتاز برزخ السويس، ثمّ أوغل في صحراء التيه شمالي سيناء .

وتنبه القوم بسرعة إلى فراره ، فلم يستطيعوا اللحاق به ؛ وكان غيظ كافور شديداً جداً، وأراد المتنبي بعد أن أصبح بعيداً وآمناً أن يشهَد الناس مرة واحدة– على الأقل . على الازدراء الذي يكنّه لسيده القديم، وتولت أيدٍ أمينةٌ إيصالَ قصيدة هجائية مقذعة إلى الخصيِّ كافور، ولكن العملية لم تنجح ، لأن كافوراً شكّ في محتواها ، فأمر بإحراقها ، ولم يقف على ما فيها.

ب– شرح معاني أبيات القصيدة:

تَصَوَّرَ أبو الطيب رجلاً يبارك له بمَقْدم العيد، ويهنئه بحلوله، ويتمنى له دوام الصحة والعافية والعمر الطويل، وبرزت على وجه الشاعر إماراتُ الأسى، وعلامات القهر والذل، وراح يسأل نفسه، أو يقول لصاحبه : أتهنّئني بالعيد، وأيَّ عيد تَعني ؟ وهل نحن نعيش فرحة العيد كما يجب أن تكون الفرحة، ونستقبل العيد كما يجب أن يُستقبل ؟؟ وبماذا نفرح، بل لماذا، هل نحن بخير، هل نحن بنعمى، هل نحن إلا مضطهدون حيارى ضائعون، في العتمات نصحو وننام ؟ ولماذا العيد ؟ بأية حال عدْتَ يا هذا العيد ! أعدت بالذل والهوان والعَسْف والقهر والكذب وألوان البلايا كعهدي بك، تحملها لي في كل قدوم، أم جئت تحمل جديداً وفرحاً وبشرى ؟؟

أنا لا أظنُّك تعرف الخير ولا الفرح، فأنت أنت، في الماضي وفي الحاضر، وغداً إلى نهاية الزمان .

أين أهلي ؟ أين أصحابي ؟ أين أحبتي ؟ أين أصفيائي ؟ أين فرحي ؟ أين هناء أيامي ؟ أنت لا تعرفها يا عيد! وأنت لا تحمِلها! وأنت لا تبشِّرني بقدومها ! إذن !! فلْتخسأْ يا عيد ! ولْتذهبْ إلى غير عودة، ولأبقَ أنا الضائعَ الغريبَ الباكي، في أرض التيه وصحراء الضياع، وضياع فرحة العيد .

عدْ أيها العيد من حيث قدمت، أنا لا أريدك، ولا أحبك، ولتكن كل مسافات الدنيا، وصحراواتها فاصلاً بيني وبينك ! سأبقى أنا رجلَ المعالي، وطالبَ العز والمجد والشموخ، ولولا العلا لم أمتَط صهوة جواد أصيل، أو ظهر ناقة قوية شديدة التحمل، وأقطع المسافات، وأجوب الأرجاء ولو حملت غير ذلك لهجرت السيف البتار، وركنت إلى زاوية أتعاطى الحب والمُدام مع غادة غراءَ فرعاءَ مصقولٍ عوارضُها، وعبَبْت اللذات، ونهبت الشهوات.
ولكن أوّاه ، ثمَّ أوّاه !! هل أصلح أنا لتلك الأمور، بل هل أبقى ليَ الزمان من قلبي وكبدي شيئاً تتيِّمه عين، أو يسحره جيد ؟ لقد غدوتُ بالياً في كلّ شيء، فلا عيد، ولا فرحَ، ولا حبَّ، ولا عين، ولا جيد، تَصلُح لي، أو أَصلحُ لها.

وراح الشاعر يَشرَق بالدمع ، ويهزّ رأسه المطرقَ ذات اليمين وذات الشمال ، وهو يسيل بالأسى والألم، ويغمغم سائلاً ساقييه الجالسين عن يمينٍ وشمال، يملأان له الكأسَ بعد الكأس، ويسقيانه خمرة صافية، علّه يسلو أو ينسى، يا ساقِيَيَّ ! ماذا تسقياني ؟ أخمر في كؤوسكما أم همٌّ وسهاد وعذابٌ فيهما ؟ والعهد بالخمر أنها تُنْسي وتُسْلي، ولكنْ ما بال خمرتكما؟ هل انقلبت أو استحالت إلى شراب يزيد الهم ويكوي الفؤاد ؟
أتُرى هي الخمرة التي ما عادت تفعل شيئاً أو تؤثر في نفس شاربها أم أن الشارب هو الذي استحال وتغير؟ أتُراني أصبحتُ صخرة، لا تحس، ولا تشعر، ولا تسكر، ولا تطرب، ولا تسمع، ولا تتأثر ؟

ما لي تغيرتُ كلَّ هذا التغير، ومالي استحلت إلى هذه الطبيعة ؟ لماذا أطلب الخمرة ووسيلة اللذة فأراها، وأصِل إليها، وأسأل عن حبيبي؟ عن قرّة عيني فلا أرى له وجوداً ؟؟
عذابٌ أنتِ يا هذه الحياة، لم أعش سروركِ يوما، وهل تعرفين يا حياةُ معنى السرور؟ وكذلك أنا لم أفارق النكدَ والمصائبَ يوما، بل لم تفارقني هي، والعجيبُ الغريب أنّ الناس يحسدونني على ما أنا فيه من عذابٍ وشكوى.

إنّ المضحك في هذه الدنيا انقلابُ الأمور، وانعكاس المفاهيم، يظنون أني بلغت الراحة العظمى، وامتلأت خزائني وجيوبي بالأحمر والأصفر والدينار والغوالي، وهم على حق فيما يظنون، ولكن خزائني وجيوبي ودنانيري وأحمري وأصفري مواعيدُ عرقوب، وأكاذيب حاكم حقير.
وحين وصل الشاعر إلى بيان حاله الحاضر، غلى مرجله النفسي، وراح يقذف باللهب والحمم، ويحرق كل ما حواليه.

لقد نزلتُ بأرض الكذابين، المخادعين، وإذا أردتَ تفصيلاً، أو بعضَ تفصيل عن كذبهم وحقارتهم فاعلمْ أن أول صفة لهم أن ضيفهم لا هو بالمكرَّم الذي يُقدَّم له طعامٌ أو شرابٌ أو مأوى، ولا يُسمَح له أن يضرب في الأرض يلتمس طعاماً أو شراباً أو مأوى، إنهم لا يرحمونه، ولا يتركون رحمة الله تنزل عليه، هل رأيت أحقرَ من هؤلاء وأسفل وأحط وأدنى ؟
كذابون كلهم، وأقل ما تجد من كذبهم أنهم يدّعون الكرم والسخاء، ويعِدون المواعيد، ويؤمِّلون الأماني، ويبنون لك في الخيال ألف قصر وقصر، وتلك جميعاً ألفاظ بألفاظ، لا حقيقة لها ولا واقع، جودهم بألسنتهم وأقوالهم، يقولون ما لا يفعلون، يكذبون والله ويكذبون.
هل رأيت أنتنَ منهم وأقذر معاملةً ونفساً وروحاً وخُبْثَ طَوِيَّة ؟ تصورْ أن مَلَك الموت حين يأتي لقبض روح أحدهم يشمئز من كريه ريحها، ونجاسة مادتها، فيلتقطها بملقط طويل الذراعين، ويسد خياشيمه حين خروجها اتقاءً من كراهية رائحتها.

ويلٌ لهذه البلاد، وويلٌ لهؤلاء العباد، كم يصبرون على الهوان ويركنون إلى الذل ويرضون بالخضوع والانكسار! وكلما قفز عبد حقير على سيده واغتاله نصّب نفسه سيداً مكانه، وأعلن للملأ هذه السيادة الجديدة، فسمعوا له وأطاعوا، وذلوا وخضعوا.

الَسخرية المقادير! ويالَعجائب الحياة !! لقد صار العبد الخصيُّ الأسود، الهارب من أسياده قائدَ البلد، وحاكم المدينة، ورئيس الناس، استعبد الأحرار، وسوّد العبيد، استخف قومَه فأطاعوه. لقد جعل عاليَها سافلَها، وقلَب الأمور، وغيّر الموازين، وبدّل الدنيا غير الدنيا.

ويحَ مصر! وما دهاها !! خيرها يعُمُّ الدنيا، وزادها يُشبِع العالمين، وقطافها يملأ السلال والغلال، لقد تسلطت عليها الذئاب والثعالب، وراحوا يسرقون كل خيراتها وينعمون بها، وقد بشمْنَ من كثرة السلب والأكل، ومصر ما تزال تعطي وتعطي.

لقد نام حراس مصر عن حمايتها، ورقدوا هانئين مطمئنين، وراحت الثعالب تغتنمها فرصةً للانقضاض على كل خيراتها، وكان لها ذلك، وما زال حرّاس مصر في هجوعهم سادرين، واهاً لمصر، كم هي مبتلاةٌ بثعالبها وبنواطيرها .

وتستمر ثورة البركان في الاندفاع ، فيرى العبدَ كافوراً وحده في هذه الحياة، ويرى الأذى والشرَّ في الدنيا قد تمثلت فيه وحدَه، ويصب جامَ غضبه على العبيد جميعاً، ممثَّلين بشخص كافور ويبدأ بإرسال الحكمة تِلْوَ الحكمة في شأن العبيد فيقول : " إياك إياك أن تغترَّ بأُخُوّة بني آدم وإياك أن تؤمن أن الأبيض أخو الأسود، وأن الحر أخو العبد، وأن الإنسان أخو الإنسان

لا .. لا .. مُحالٌ هذا ، وليس صحيحاً ذلك أبداً، فالعبدُ عبدٌ، وسيبقى عبداً إلى أن يَرِث الله الأرض ومَن فيها، ولو تزيّا العبد بزِيِّ الحر، ولو وُلِد في بيت الأحرار، ولو تصور بكل صوَر الأحرار، فسيبقى عبداً ذليلاً حقيراً إلى الأبد، لا مؤاخاة، ولا مساواة، ولا ما يقرب من هذا بقليل أو كثير.

وإذا اشتريت عبداً لخدمتك، أو لتحرث عليه، أو تفلح، أو تزرع، أو تركب، فاشتر في الوقت ذاته عصاً غليظة، لتُلهب جسده بها، وتسلخَ جلده عن لحمه، فالعبيد أنجاس أينما وجدوا وحيثما حلّوا، ورحلوا، وكافور الإخشيدي على رأسهم وزعيمُهم .

ويلتفت المتنبي إلى نفسه، وينظر فيما آل إليه أمره بعد قدومه هذه الديار، ويستغرب أن ترميَ به المقادير إلى هذا المصير، إذ لم يحسب أنه سيأتي عليه زمان يسيء إليه فيه عبد، ثم يمدحه الناس ويشكرونه على هذه الإساءة، ولم يَدُر في خَلَده أن الرجال الكرام قد فُقدوا من هذا الوجود، وغابوا عن الأعين، ولم يبق في الساحة إلا ذلك الأسودُ المأفون، ذلك العبد الذي شقَّ له أسياده شفَته ليربطوه بها ، كما يُربط البعير وكل حيوان .

لم يتوهمْ أن هذا الشفاهيَّ سيسود الناس، ويحكم الرجال والبلاد والعباد، ويطيعونه ويأتمرون بأمره ويصفونه بالكريم، وهو في الحقيقة يأكل حقوق الآخرين، ويأبى عليهم أن يصلوا إليها، ويتمتعوا بها وعند هذه النقطة الحرجة من وصف هؤلاء القوم راح أبو الطيب يشتم هذه السياسة، ويسب هذه الخطةَ وراسميها والقائمين عليها، ويدعو إلى امتطاء صهوات الخيل وإشهار السيوف وتقتيلِ كلِّ من يقبَلها، أو يقوم بها، أو يرضاها لنفسه .

ومن جديد يعود الشاعر إلى السؤال الكبير الذي حيّره وحيّر العالمين، ولم يجد له جواباً شافياً يتلخص في رغبته أن يعرف : مَن علّم الأسودَ المخصيَّ الذي انتزع أسياده منه عنوانَ الفحولة والرجولة، مَن علّمه طريق المكارم، مَن دلَّه على قيادة الناس، مَن أتاح له فرصة الظهور والتعالي مَن سوّده على البلاد والعباد ومَن هم هؤلاء ؟ أتُراهم أبناءُ جِلدته السود، أم هم العبيد، الأرقاء ، الأذلاء ؟

لا .. لا.. ما أهلُه همُ الذين علموه هذه العزة، بل هم النخّاسون الذين يتاجرون بالأرقاء والعبيد ، والذين يربطونهم بالحبال من أعناقهم، أو آذانهم، أو أنوفهم، أو شفاههم، والذين يفرِكون آذانهم كلّما تحرّكوا حركةً غيرَ عادية .

بلى !! هم النخاسون أو لعلهم المشترون الذين يساومون في أثمانهم عند تقويم أثمانهم والذين لا يدفعون ثمن الواحد من هؤلاء أكثر من فَلسَيْنِ قيمةً وثمناً، أما أنا ! فأعذرك يا كافور، لأنّك رُبِّيتَ في المهانة، ورضعت من مراضع الذل والقهر، والذي يتربى في هذه المرابي يكون معذوراً إن كان من البيض، أو كان من الفحول ذوي البشَرة البيضاء، ويُعذر أكثر إذا كان مخصياً أسودَ الوجه كالليل، أسودَ البشَرة كفعاله وأصوله.

ج- نقد المعانيّ:

وهنا – نقف لحظة لنقول : – إن المتنبي في هذه اللحظة، بل في هذه القصيدة ، تخلّى عن كل ما يميز الرجلَ الحكيم العاقل، والمسلمَ الملتزم، والعربيَّ الكريم، لقد خالف كتابَ الله صراحة وخالف حديثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم علَناً، وخالف الأُخوَّةَ العربية جِهاراً، ولم يبال بهذه المخالفات، بل لعلّه تعمّدها قصداً، خالف كتابَ الله الذي ينص على أن المؤمنين إخوة، وعلى حُرمة السخرية والهزْء من الناس ، والحطِّ من كرامتهم ، والاستهانة بهم .

فالله جلّ وعلا قال : " يا أيُّها الذين آمَنوا لا يَسْخَرْ قَومٌ من قَوْمٍ عسى أن يَكونوا خيراً منهم ، ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ ".

وهو القائل كذلك : " يا أيُّها الناسُ إنّا خلَقناكم من ذَكَرٍ وأنثى، وجعَلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارَفوا إنَّ أكرمَكم عند الله أَتقاكُم " .

وخالف حديث " رسول الله صلى الله عليه وسلم " الذي نصَّ على أنّ القويَّ الشديدَ ليس بالصُّرَعَةِ، ولا بقوة اللسان، أو العضلات، ولا بالقدرة على سبِّ الناس وشتمِهم، وهتْكِ أعراضهم وإنما الشديدُ هو الذي يَملِك نفسه عند الغضب، والذي يتماسك خَلْقاً وخُلُقاً عند الصدمة الأولى والذي يَصون لسانه عن الغِيبة والفحشاء وسَلْقِ الناس بلسان حديد .

وخالف الخُلُقَ العربي الأصيل حين توجه إلى مصرَ العربيةِ المسلمة، البلدِ العظيم الذي أمدّ الجيوشَ الفاتحة بعشرات الآلاف من المجاهدين، البلدِ الذي حفظ الإسلامَ وتعاليمه وقدَّم إلى العالم الإسلامي، قديماً وحديثاً، عظماءَ العلماء، والأتقياء، والأولياء والمجتهدين، والمجاهدين .

إن بلداً مثلَ مصر، لا يستحق أن يوصف بأرض الكذّابين، ولا يستحق أن يوصف أهله بالبخل والكذب والرياء وخبث الروح والذل والاستكانة لكل عبد حاكم، أو ظالم متسلّط مصر صفحةٌ ناصعةٌ في تاريخ الحضارات، قبل الإسلام، ومع الإسلام وستبقى هي وأهلوها كراماً، عظاماً أعزةً ، إلى أن يَرِث اللهُ الأرض ومن عليها .

وإذا كان المتنبي قد تلفظ بتلك الألفاظ القاسية، وأراد بها أن يشتم كافوراً، فلقد ضلّ الهدفَ فهجا كافوراً، وهجا مصر من أولها إلى آخرها، وأخطأَ الطريق .

إن المتنبي إنْ نجح فنياً في هذه الأبيات، فلقد سقط دينياً وخلقياً، ولن يشفع النجاح الفنيُّ لأيِّ فنان أو شاعر أن يتجاوز الحدود المقدسة، رعياً للفن، أو إكراماً للجمال.

د- أسباب خلود هذه القصيدة:

ونتساءل عن السبب الذي خَلَّد هذه القصيدة، وأشاعها بين الناس، وحفِظها الصغير والكبير على مر السنين والأيام، ورب قائل يقول :" إن إهانةَ كافور للشاعر جعله يحقِد عليه، ويصُبُّ جامَ غضبه عليه في قصيدة هجائية خالدة ".

ورب قائل آخر يرى أن تفرقةَ الشاعر بين الأحرار والعبيد، أو بين السود والبيض، أو بين الحاكمين المغتصِبين والمحكومين المضطهَدين، كان وراء قوة القصيدة وبقائها .

ورب قائل ثالث يرى أن حبَّ المتنبي الكامنَ الخفيَّ لسيف الدولة العربيِّ، وما لقيه في بلاطه على مدى تسعة أعوام من إجلالٍ وإكرام وعزٍّ ومَجْد، وما خاضه معه من غزوات وحروب، وما أحبَّ في جواره من أناس، ثم ما واجهه في بَلاط كافورٍ من مؤامراتٍ ودسائسَ ومواعيدَ كاذباتٍ وسوى ذلك من أمور، كان أساساً دفيناً لهذه الثورة الشعرية .وأعتقد أن سبب روعة هذه القصيدة إضافةً إلى ما ذكرنا عواملُ أخرى، هي نفسيةٌ من جانب، وأسلوبيةٌ لغويةٌ من جانبٍ آخر.

فالمتنبي الذي استُدْعِيَ إلى مصر بدعوة رسمية من كافور، وفيها وعدٌ منه للشاعر بولاية إقليم أو بلد تابع لمملكة كافور، ومخاصمةُ أبي الطيب لابن مَلَك اليهودي، بل احتقارُه، ولابنِ كَيَغْلَغٍ الأعورِ حاكمِ طرابُلُس، وهجاؤُه للرجلَيْن في سبيل إبقاءِ الشعرِ الكريمِ لكافور وحدَه، وفي المقام الأكبر عزمُه على هجران بلاط سيف الدولة، ومعاداةُ جميع الشعراء الذين كانوا يرتادونه، مع معاداة أبي فراسٍ الحمداني ابنِ عمِّ الأمير ، وفوق هذا كلِّه فراقُ خولةَ الحمدانيةَ ، أختَ سيف الدولة التي كان يُضمر لها الحبَّ المكينَ الدفينَ بعض الأسباب النفسية لثورته.

6- ملحق بقصائد الهجاء المشهورة:

قال المتنبي في قصيدة بعنوان:

" أشخصا لحت لي أم مخازيا "

يهجو كافورًا وقد نظر الى شقوق في رجليه:

أُرِيدُ الرِضَا لَو أَخَفتَ النَفسَ خَافِيًا *** وَمَـا أَنَاخَـتْ نَفسِـي وَلاَ عَنكَ رَاضِيًا [1]
أَمِـينًا وَإِخْـلاَفًا وَغَـدرًا وَخِسَـةً *** وَجُبْنًا أَشَـخْـصًا لِحْتَ لِي أَمْ مُخَازِياً [2]
تَظُنُّ ابتِسَامَتِي رَجَــاءًا وَغِبْـطَةً *** وَمَا أَنَا إِلاَّ ضَمَامُكَ مَنْ زَجَــا بِنَا [3]
وَتُعجِبنِي رِجلاَكَ فِي النَعلِ إِنَنِي *** رَأَيــتُكَ ذَا نَعـْـلٍ إِذَا كُنتَ حَافِيًا [4]
وَإِنَكَ لاَ تَدرِي أَلَونُكَ أَسْــوَدٌ *** مِنَ الجَهْلِ أَم قَد صَارَ أَبيَضًا صَافِياً [5]
وَيُذَكِّرُنِي تَخْبِيطُ كَعْبِكَ شَــقَهُ *** وَمَشيُكَ فِي ثَوبٍ مِنَ الزَيْتِ عَارِيًا [6]
وَلَولاَ فُضُولُ النَاسِ جِئتُكَ مَادِحًا *** بِمَـا كُنْتَ فِي سِـرِي بِهِ لَكَ هَاجِــيًا
فَأَصْبَحتَ مَسرُورًا بِمَا أَنَا مُنْشِدٌ *** وَإِن كَانَ بِالإِنشَادِ هَجْــوُكَ غَالِيًا [7]
فَإِن كُنتَ لاَخَيرًا أَفدَتَ فَإِننِــي *** أَفَـدتُ بِلَحظِي مَشْفَرَيكَ المَلاَهِيـَا [8]
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة *** ليضحك ربات الحـداد بواكيـــا [9]

[1] يقول: لو قدرت على إخفاء ما في نفسي من كراهتك لكنت أريك الرضي ولكني لست براض عنك لتقصيرك في حقي ولا عنها أيضا لقصدها إليك.

[2] المين: الكذب، المخازي ج مخزية : الفعلة القبيحة، يقول: جمعه كل الأشياء القبيحة فيك أشخص أنت أم مجموع مخاز.

[3] الغبطة:المسرة وحسن الحال.

[4] أي لك فعل من جلد رجليك لغلظه.

[5] من الجهل :متعلق بتدري.

[6] يقول: إن تخبيطك لكعبك يذكرني الشقوق التي كانت به والأيام التي كنت فيه تمشي عاريا.

[7] الفضول: تعرض الإنسان لما لا يعنيه.

[8] يقول: إن كنت لم تفدني خيرا في مدة إقامتي عندك فاني استفدت الملاهي برؤيتي شفتيك اللتين كمشفري البعير.

[9] يقول: مثلك يقصد من بلاد بعيدة ليتعجب في منظرك الغريب الذي يضحك الثكلي.ديوان المتنبي: ص500-501

هذه الأبيات اليائية هي من أهاجي المتنبي في كافور قالها وهو ساخط على كافور وعلى نفسه معا ضاحك منه ومنها فالآمال التي عقدها على سيد مصر باءت بالفشل.

ويهجوه أيضا بداليته المشهورة:

"أين المحاجم ياكافور؟"

مِنْ أَيَةِ الطُرقِ يَأتِي مِثْلُكَ الكَرَمُ *** أَيْنَ المَحَا جِمُ يَاكَافُور وَالجَلَمُ [1]

جَازَ الآلَى مَلَكَتْ كَفَّاكَ قَدرَهُمْ *** فَعُرِفُوا بِكَ أَن الكَلْبَ فَوقَهُمْ [2]

سَادَتْ كُلِ أُنَاسٍ مِنْ نُفُوسِـــهِم *** وَسَادَتْ المُسْلِمِين الأَعْبدُ القَزَمُ [3]

أَغَايَةُ الدِينَ أَن تَحفُوا شَوَارِبَـكُم *** يَا أُمَـةً ضَحَكَت مِنْ جَهْلِهَا الأُمَمُ [4]

أَلاَ فَتَى يُورِدُ الهِنْدِيَ هَامَـــــتَهُ *** كَيْمَا تَزُولُ شُكُوكُ النَاسِ وَالتُهَمُ [5]

فَإِنَّهُ حُجَةٌ يُؤْذِي القُلُــوبَ بِــهَا *** مِنْ دِينِه الدَهرُ وَالتَعطِيلُ وَالقَدَمُ [6]

مَا أَقْدَرَ اللهَ أَن يَجزِي خَلِيقَـــتَه *** وَلاَ يُصَدِق قَومًا فِي الذِي زَعمُوا [7] [**]

---

[1] المحا جم جمع محجمة القارورة يحجم بها الجلد ويقال لها كأس الحجامة،الجلم:أحد شقي المقراض فقط وهما جلمان و المراد به هنا المشراط،يقول:كيف يصل إليك الكرم من بين هده الأشياء،قيل انه كان عبدا لحجام بمصر فلما باعه اشتراه الإخشيد.

[2] يقول : إن الدين ملكتهم تجاوزا قدرهم بالبطر و الكبرياء ، فملكهم الله عليهم تحقيرا لهم يأت ملكهم كلب .

[3] القزم : ردال الناس سفلتهم .

[4] أخفى شاربه : بالغ في أخده و استقصت قصة ، يقول لأهل مصر : لاشيء عندكم من الدين سوى احفاء الشوارب حتى ضحكت من جهلكم الأمم بطاعتهم لهدا الأسود .

[5] يحرضهم في هدا البيت على قتله .

[6] يقول : إن تمليكه عليكم حجة للدهري لأت يقول لو كان لنا مدير حكيم لما ملك هدا العبد .

[7] أي لا يجعل القائلين بما دكر في البيت السابق صتدقين بل يسلط عليه من يقتله.

[**] ديوان المتنبي ص502.

هذه الدالية هي أجود ما قال أبو الطيب في فن الهجاء من حيث المتانة والرصانة، ففيها غير دليل على براعة الشاعر لا يجاريها في مضمار الجودة غير الأبيات الميمية التي بدأت بالضحك لتنتهي بحزن فلسفي عميق ثم بتحريض سافر على اغتيال الكافور [*].

ويقول المتنبي أيضا هاجيا كافور من خلال قصيدته الميمية.

" **كان الحر بينهم يتيم** "

أَمَا فِي هَذِه الدُنْيَا كَرِيم *** تَزِيل بِه مِنَ القَلبِ الهُمُومُ
أَمَا فِي هَذِه الدُنْيَا مَكَانٌ *** يُسَـرُ بِأَهْلِه الجَـارُ المُقِيمُ
تَشَابَهتِ الَبهَائِمُ وَ العَبدِي *** عَلَـينَا وَالمَـوالِي وَالصَميمُ[1]
وَمَا أَدرِي أَذَا دَاءٌ حَديثٌ *** أَصابَ النَاسَ أَم دَاءٌ قَـدِيمٌ
حَصَلْتُ بِأرضِ مِصرَ عَلَى *** عَبِيدٍ كَـــأنَّ الحُرَ بَينَهُم يَتِيمُ
كَانَ الأَسودُ الأَبِيُّ فِيهم *** غُرَابٌ حَولَه رَخَمٌ وَ بُومٌ[2]
أَخَدتُ بِمَدحِه فَرأَيتُ لَهوًا *** مَقَـــالِي لأَحِيمَقِ يَا حَلِيمُ
وَلمَّا أَن هَجوتُ رَأيتُ عَيًا *** مَقَالِي لابْنِ آوَى يَا لَـئِيمُ[3]
فَهل مِنْ عَاذِر فِي ذَا وَفي ذَا *** فَمدْفُـوعٌ إِلى السَقَمِ السَقِـيمُ[4]
إِذَا أَتتْ الإِساءَةَ مِن وَضِـــيعٍ *** وَلَمْ أَلُم المُسِيء فَمَن أَلُوم[5](**)

(*) جورج غريب:المتنبي دراسة عامة ص.291

(1) العبيد ج عبد:أحد الناس، الموالي:الذين كانوا عبيدا، الصميم :الحر الخالص النسب يقول :عم الجهل الناس حتى اشتبهوا بالبهائم وملك المملوكين حتى التبسوا بالأحرار.

(2) اللابي :نسبة إلى اللاب وهي بلدة بالنوبة.

(3) عيي في المنطق :لم يجد ما يقول.

(4) الإشارة في البيت إلى المدح والهجوا و أنه كان مدفوعا إلى ذلك.

(5) يعتذر من تكلفه هجاءه يقول:إذا أساء إلى حقير خسيس ولم ألمه فمن ألوم.

(**) ديوان المتنبي، ص503.

في هذه القصيدة مزج المتنبي فيها الجاد بالسخف وهي خليقة بالعناية لما فيها من غناء حزين[*].

وقال هاجيا كافور وقد خرج من عنده يوما بقصيدة:

" أنوك من عبد و من عرسه "

أَنُوكَ مِنْ عَبدٍ وَمِنْ عُرْسِهِ *** مَن حَكَّمَ العَبدَ عَلَى نَفْسِه[1]
وَإِنَمَا يَظْـــهَرُ تَحـكِـيمَه *** تَحكُّم الفسَادِ فِي حِسِّه[2]
مَا مَن يَرَى أَنَكَ فِي وَعْدِهِ *** كَمَن يَرَى أَنَكَ فِي حَبسِه[3]
لاَيُنجِزُ المِيعادَ فِي يَومِــــه *** وَلاَ يَـعِي مَا قَالَ فِي أَمسِه
وَإِنَمَا تَحتَال فِي جَــدبِــه *** كَأَنكَ المَلاَّحُ فِي قَلسِه [4]
فَلاَ تَرجَّ الخَيرَ عِندَ امْرِئٍ *** مَرتْ يَدُ النَخاسِ فِي رَأسِه[5]
وَإن عِرَاكَ الشَكَّ فِي نَفسِه *** بِحَالةٍ فَانظُر إِلَى جِنسِه [6]
فَقُل مَا يَلُوم فِي ثَوبِـــــه *** إلا الذِي يَلُومُ فِي عُرْسِه[7]
مَن وَجَد المَذهَبَ عَن قَدْرِه *** لَم يَجِد المَذهَب عَن قِنْسِه[8]

قال هذه الأبيات وقد خرج من عنده يوما [**].

---

[*] جورج غريب :المتنبي دراسة عامة ،ص293.

[1] أنوك:أحمق،عرسه:زوجته يريد بها الأمة.

[2] يقول:إن تحكيم العبد يدل على تحكم الفساد في عقل من يحكمه.

[3] يقول:انكافورا يعامله معاملة المحبوس عنده لأنه لا يفيه ما وعده ولا يطلق سبيله فيرتحل

[4] الملاح: البحار ،القلس:حبل السفينة

[5] النخاس:بائع الدواب ويطلق على بائع الرقيق.

[6] قوله إلى جنسه أي العبيد فانك لا ترى أحدا منهم له مروءة وكرم.

[7] الغلاس: جلدة رقيقة تخرج مع المولود.

[8] القس:الأصل.

[**] ديوان المتنبي ،ص504.

أنبى مكان

أَتَحلِفُ لاَ تُكَلِـفنِي مَسـِــيرًا *** إِلَى بَلَدٍ أُحَاوِلُ فِيهِ مَالاً
وَأَنْتَ مُكَلِّفِي أَنبَــي مَكَـــانًا *** وَأَبعَدُ شَقهُ وَأَشَدُّ حَالاً[1]
إِذا سِرنَا عَن الفِسطاَطِ يَومًا *** فَلَقِينِي الفَوارِسَ وَالرِجَالاَ[2]
لِتَعلَمَ قَدرَ مَن فَارقْتَ مِنِــي *** وَأَنكَ رُمتَ مِن ضَيمِي مَحَالاً

لقد قال هذه القصيدة بعد أن استأذن الأسيود في الخروج إلى الرملة ليقضي مالا كتب له به وإنما أراد أن يعرف ما عند الأسود في مسيرة فمنعه وحلف عليه أن لا يخرج وقال :نحن نوجه من يقضيه لك فقال في دلك ساخطا عليه وهاجيا له بهذه القصيدة:

" وأعانه الله و إيانا "

لَو كَانَ ذَا الأَكْلِ أَزوادُنَا *** ضَيفًا لأَوسَعنَاهُ إِحسَانًا[3]
لَكِنَنَا فِي العَينِ أَضيَـافُه *** يُوسِعُنَا زُورًا وَبُهتَانًا[4]
فَلَيتَهُ خَلَّـى لَنَـا طُرُقنَــا *** أَعانَهُ اللهُ وَإِيَانَاَ[5][*]

---

[1] أنبي تفضيل من قولهم بنا فلان المكان اذا لم يوافقه، الشقة: المسافة.
[2] لقي الفوارس:أجعلهم يلقوني.
[3] الأزواد:جمع زاد:طعام المسافر،أوسعنا:أكثرنا، والأصل أوسعنا له.
[4] قوله في العين أي في الظاهر.
[5] أي أعانه الله على تخلية طرقنا وأعاننا على الرحيل من عنده.
[*] ديوان المتنبي،ص505.

وقال يهجو كافورا بأبيات:

" **قلب ضيق وبطن رحيب**"

وَأَسْوَدٌ أَمَا القَــلبُ مِنهُ فَضِـــيقُ *** نَخِيبٌ وَأَمَا بَطــنُه فَرحِيــبٌ
يَمُوتُ بِه غَيظاً عَلَى الدَهرِ أَهـْـلُهُ *** كَمَا مَاتَ غَيظاً فَإنك وَشبِيبُ
إِذَا مَاعَدِمتَ الأَصلَ والعَقلَ والنَدَى *** فَمَا لِحيَاةٍ فِي جَنابِكَ طِيـبُ [1]

وقال يهجو إسحاق بن كيغلغ ويمدح أبا العشائر:

" **لايسلم الشرف الرفيع** "

لِهَوَى النـُفُوسِ سَـرِيرَةٌ لاَ تَعـــلَـمُ *** عَرضًا نَظَرتُ وخلتُ أَنّي أَسلَمُ
يَا أُختَ مُعْتَنِقِ الفَوارِسَ فِي الوَغَى *** لأَخُوكِ ثُم أَرقُّ مِنكِ وَأَرحـــامُ
رَاعَتْكِ رَائِعةُ البَيَـاضِ بِمَفـْــرِقِي *** وَلَو أَنَهَا الأُولَى لَرَاعَ الأَسـْحَمُ
لَو كَان يُمكِنُنِي سَافَرتُ عَنِ الصِبَى *** فَالشَيبُ مِن قَبـلِ الأَوَانِ تَلَــثُّمُ
وَلقَد رَأَيتُ الحَــادِثَاتِ فــــلاَ رَأَى *** يَقْفًا بِمَيتٍ وَلاَ سَـوَادًا يَعـْـصِمُ
وَالهَمُّ يَخْتَرِمُ الجسَـيمَ نَحـَــافَةً *** وَيَشِيبُ نَاصِيةَ الصبَـبَي وَيَهرَمُ
دُو العَقلِ يَشقَى فِي النَعِيمِ بِعقـْلِهِ *** وَأَخُو الجهَالَةِ فِي الشَقَاوةِ يِنـَعَمُ
وَالنَاسُ قَد نَبَذُوا الحِـفاَظَ فَمطْلَــقٌ *** يَنسَى الذِي يُولَى وَعَافٍ يَنْـدَمُ
لاَ يَخْدَعـنَّكَ مَن عَـــدُوهُ مَعــهُ *** وَارْحَم شَبَابَكَ مَن عَـدُو تَرحَـمُ
لاَ يَسلَمُ الشرَفُ الرَفِيـعُ مِنَ الأَذَى *** حَتَى يُرَاقَ عَلى جـَوَانِبِه الـدَمُ
يُؤْدِي القَليـلُ مِن اللّئَـامِ بِطَبْـعِهِ *** مَنْ لاَيُقَـلْ كـَما يُقلُ وَيلْــؤَمُ
وَالظُلْمُ مِنْ شِيمِ النُفُوسِ فَإِنَ تَجِـد *** ذَا عِـــفَةٍ فَلعَـــلةٍ لاَ يُظلَــمُ
وَمِنَ البلْيَةِ عَـذْلٌ مَن لاَيرعَـــوِي *** عَن جَهْلِه وخِطَابُ مَن لاَيَفـْهَمُ
وَجـُفُونَهُ مَا تَسـْــتَقِرُ كَأَنـَـــهَا *** مَطْرُوفَةٌ أَوْفَتْ فِيهَا حَصــْـرَمُ

---
[1] ديوان المتنبي ، ص 513 .

وَإِذَا أَشَـارَ مُحَـــدِثًا فكَـــأنَهُ *** قِردًا يُقَهقِهُ أوعَجوزٌ تُلْـــطَمُ
يَقلَى مُفَارقَة الأَكُــفِّ قِـــذَالَهُ *** حَتَى يَكَادَ عَلَى يَدٍ يَتَعَـــمَمُ
وَتَرَاهُ أَصْغَرَ مَــــاتَرَاهُ نَاطِــقًا *** وَيَكُونُ أَكْذَبَ مَا يَكُونُ وَيقْسِمُ
والذُل يَظهَرُ فِي الذَلِيـلِ مَــودَةً *** وَأودُّ مِنهُ لِمَن يَودُ الأَرْقَـــمَ
وَمِنَ العَدَاوَةِ مَا يَنَـــالُك نَفعُــهَ *** وَمِنَ الصَدَاقَةِ مَا يَضُرُ وَيُولِمُ
أَرسَلْتَ تَسأَلُنِي المَدِيحَ سَفَاهَــةً *** صَفْرَاءُ أَضيَقَ مِنكَ مَاذَا أَزعَمُ
فَلشَدَّ مَا جَاوزْتَ قَدركَ صَاعِـدًا *** وَلَشَدُّ مَا قَربْتَ عَليكَ الأَنْـجُمُ
وَأَرَغْتَ مَا لِأَبِي العَشَائِر خَالصًا *** إن الثَنَاء لِمَن يُزَارُ فَــــيُنْعَمُ
وَلِمن أَقَمتَ عَلى الهَوانِ بِبَــابِهِ *** تَدنُو فَيُوجَأُ أخدعـــاكَ وَتنهَمُ
وَلِمن يَهِينُ المَالَ وَهو مُكَــــرَمٌ *** وَلِمَن يَجُرُ الجَيشَ وهو عَرمْرَمُ
وَلِمَن إذَا التَقَتَّ الكُمَاةَ بِمَــأْزقٍ *** فَنَصِيبهُ مِنـــهَا الكَميُّ المعلِمُ
وَلَرِبَما أَطَرَّ القَنَــاهِ بِفَــــارِسٍ *** وَثَنَى فَــوقَهُمَا بِآخَر مِنــهُمْ
وَالَوجهُ أَزدهَرَ و الفُؤَادُ مُشَــيَعٌ *** وَالرُمحُ أَسمَرٌ الحُسامُ مُصَمَمُ
أَفعَالُ مَن تَلِدِ الكِرَامُ كَـــرِيمَةٌ *** وَفعَالُ مَن تَلِد الأَعَاجِمُ أَعـْجَمُ [1]

مر الشاعر في طريقه على إسحاق بن الأعور بن إبراهيم بن كيغلغ وكان محافظا على طريق طرابلس فطلب منه أن يمدحه فاحتج بأنه قد حلف أن لا يمدح أحدا في الطريق فإعتاقه إسحاق عن طريقه، ولما فارقه قال يهجوه ويمدح أبا العشائر .

وقال في هجاء ضبة:

" **ما أنصف القوم ضبه** "

مَا أَنْصَفَ القَومَ ضَبَه *** وأُمــهُ الـــطُرطُــبَة
وَإِنَما قُـلتُ مَا قُــلتَ *** رَحْمَــةً لاَ مَحَــبَة
وَجَبـــــلَةٌ لَكَ حَـتَى *** عُذِرتَ لَو كُنتَ تَأبَه
وَمَا عَلَـيكَ مِن القَتْـــ *** ـلِ إنَمَا هِي ضَــربَه
وَمَا عَلَيكَ مِن الغَــدْ *** رِ إنَمَا هِي سَبَّــه

[1] ديوان المتنبي ،ص 270-573.

يَا قَاتِلاً كُلَّ ضَيــفٍ *** عَنَاه ضَيحٌ وَ عَلْبَه
وَخَوفَ كُلِّ رَفِيـــقٍ *** أَبَاتَكَ اللَيلُ جَـنْبَه
كَدَا خُلِقتَ وَمَن ذَاكَ *** الذِي يُغَـــالِبُ رَبَه
وَمَن يُبَـــالِي بِـــدَمٍ *** إذَا تَعَـوَدَ كَسْـــبَه
فَسَلْ فُؤَادَكَ يَا ضَـــ *** بَّ أَينَ خَلف عُجْبَه
وَإِن يَخُنكَ فَعُمْـرِي *** لَطَالَمَا خَانَ صُحبَه
وَكَيفَ رَغَبَ فِيـــهِ *** وَقَد تَبَينْتَ رَعبَـــه
مَا كُـنتَ إلاَ ذُبَـابًا *** نَفتُـكَ عَنَا مَدْبَـــه
وَإِن بَعُـــدْنَا قَلـــيلاً *** حَمَلتَ رُمحًا وَحِرْبَه
وَقَالَت لَيتَ بكَـــفِّي *** عَنَانَ جَردَاءَ شَطْبَه
إِن أَوحشَتْكَ المَعَالِي *** فَإِنَـــهَا دَارَ عَنْزَبَه
أَو آنسَتكَ المَخَازِي *** فَإِنَـــها لَكَ نِسْـــبَه
وإِن عَرفْتَ مُـرَادِي *** تَكَشَفْتَ عَنْهُ كَربَـــه
وإِنْ جَهلَتَ مُـرَادِي *** فَإِنَـــه بِكَ أَشْـــبَه [1]

قال الشاعر هذه القصيدة وهو هاجيا ضبه هذا الذي كان غدرا بكل من نزل به، لما سمع المتنبي بغدره وإكراهه جماعة من الكوفيون له قال فيه هده القصيدة .

وفي ديوان المتنبي قصائد في الهجاء، وقد اضُطّر إليها اضطراراً ودُفِعَ إليها دفعاً لأسباب داخلية نفسية، ومع ذلك فالمتنبي ليس شاعر هجاء، كما هو الحال عند شعراء النقائض، وليس الهجاء عنده لعبةً شعرية أو مبارزة بين شاعرين أو ترويضاً على فنون القول، وإنّما هو تعبير عن حاجة نفسية، ولذلك كان هجاؤه مرّاً وقاسياً ولاذعاً، وهو فوق ذلك موجع إيجاعاً لا مثيل له في شعر الهجاء العربي، فضلاً عما فيه من اختلافات، وهو فوق ذلك لا يهجو سوى الملوك والأمراء والشعراء.

[1] ديوان المتنبي ، ص 574-574 .

الخاتمة

خاتمة:

وهنا يبلغ البحث مطافه الأخير الذي نسأل الله أن يكون حظنا فيه من التوفيق كبيرا، وإن كان موضوعه مايزال مجالا خصبا لمن يريد الخوض في غماره والكشف عن أسراره فمهما كانت النتائج التي وصلنا إليها فهي قابلة للإثراء أو التغيير، للمناقشة والتدبير، وأيا كانت نسبة حظنا من التوفيق يبقى عزاؤنا الوحيد أننا أخلصنا الجهد ولم نتوان عن بدل قصارى ما نستطيع في سبيل نجاح بحثنا .

وتنحل ضمن العصارة الخالصة لبحثنا هذا جملة نتائج نوجزها فيما يلي :

1- مند القديم والشعر العربي يتطور شكلا ومضمونا .

2- إن شعر الهجاء الذي كان "المتنبي " أحد فرسانه تعد تجربة واعية متكاملة وتطور تطورا كبيرا خاصة في العصر العباسي .

3- إن التطور في شعر الهجاء عند "المتنبي" يظهر في الأفكار كما يظهر في المواقف ويظهر أيضا في قدرته على الخوض في مكنونات وهواجس النفس البشرية في التعبير عن العواطف الإنسانية الخالدة .

4- تتسم أغلب قصائده بخصوصية فنية اكتسبها من قدرة صاحبه على التعبير والأداء في المعجم الشعري .

5- تعطيك القصيدة الدالية "لا تشتري العبد" مالا يعطيك أي نص آخر "للمتنبي" ، فهو تراجيدي يتجلى فيه الشاعر كأديب الذي أدرك الحقيقة متأخرا ، فوصل إلى حالة فجائعية كبرى .

6- تجلي النزعة الطبقية، ولنقل العنصرية في معظم أبيات القصيدة .

7- تميز المتنبي في هجائه، إذ هو صادر عن قناعة ذاتية ونفسية ودافعه داخلي خالص .

8- إن المتلقي لهذه القصيدة يفاجأ بأن الشاعر يقدم إليه صفات لم تكن على قائمة الهجاء في الشعر العربي .

وهكذا تم البحث بحمد من الله وفضله، فإن أصبنا فمن الله وإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك وصلى الله على عبده ورسوله سيدنا محمد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قائمة المصادر والمراجع

I- المصادر :

1- أبو منصور الثعالبي: يتيمة الدهر، ج1 .
2- إبن خلكان: وفيات الأعيان، ج1 .
3- إبن كثير: البداية والنهاية، مجلد 5، ج10 .
4- إبن منظور: لسان العرب، ط3، بيروت، لبنان، ج1 .
5- ديوان المتنبي: دار بيروت للطباعة والنشر، ج2 .
6- أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي، ط29، دار الثقافة، بيروت،ج1.
7- نوابغ العرب: أبو الطيب المتنبي، ط4، دار العودة، بيروت، ج1.
8- إحسان عباس: تاريخ النقد العربي، ط1، دار الشروق، عمان، ج4.
9- شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر العباسي، دا المعارف، ط7 .
10- حمود محمد: أبو الطيب المتنبي، دار الفكر، بيروت، 1993 .

II- المراجع :

1- أحمد بدوي أحمد: من النقد والأدب.
2- الأربلي : كشف الغمة .
3- إيلي الحاوي: فن الهجاء وتطوره، دار الشروق، بيروت، لبنان.
4- جورج غريب: المتنبي دراسة عامة، دار الثقافة، ط3، بيروت، لبنان .
5- حنا الفاخوري: منتجات الأدب العربي، منشورات المكتبة الوليسية، بيروت، لبنان، ط5
6- طه حسين: مع المتنبي، دار المعارف، ط13 .
7- عبد الوهاب عزام: ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، دار المعارف، ط2 .
8- عمر فاروخ: تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، ج1 .
9- فؤاد أفرام البستاني: درس ومنتجات أبو الطيب المتنبي،بيروت، ط7 .
10- محمد مصطفى هدارة: إتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري .
11- موهوب مصطفاوي: المثالية في شعر المتنبي، دار المعارف، ط1 .
12- نور الدين السد: الشعرية العربية .
13- هادي نهر: مع المتنبي في شعره العربي، ط1 .
14- ورام بن أبي فراس. تنبيه الخواطر، ج1 .

15- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه.
16- البرقوقي عبد الرحمان: شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب، ط1، 1986 .
17- نادر كاظم: تمثيلات الآخر،البحرين، 2004 .
18- مصطفى الشكعة: أبو الطيب المتنبي، دار العلم، بيروت، ط3، 1983 .
19- إبن خلدون: كتاب العبر، دار الكتاب، لبنان، 1986 .

فهرس الموضوعات

مقدمة	أ – ب
مدخل	1
الفصل الأول: حياة ابو الطيب المتنبي	
1- نشأته و حياته	4
2- آثاره الفنية	7
3- طموحه	9
4- إدعاؤه النبوة	12
5- وفاته	14
الفصل الثاني: تطور الهجاء في عصر المتنبي	
1- أغراض شعر المتنبي	17
2- مفهوم الهجاء	32
3- تطور الهجاء في العصر العباسي	35
4- المتنبي والهجاء	43
5- خصائص وأهداف الشعر الهجائي عند المتنبي	44
الفصل الثالث: خصائص الهجاء في قصيدة " لا تشتر العبد "	
1- بعض من هجاهم المتنبي	49
2- كافور بين الداكرة التاريخية والداكرة السعرية	55
3- علاقته بكافور	63
4- هجاؤه لكافور	65
5- خصائص الهجاء في قصيدة لا تشتر العبد	72
6- ملحق بقصائد الهجاء المشهورة عند المتنبي	81
خاتمة	90
قائمة المصادر والمراجع	93
فهرس الموضوعات	95